

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة مجمع البحوث الإسلامية
السنة التاسعة والأربعون ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

منهج القرآن في بناء المجتمع

للإمام محمود شلتوت
شيخ الأزهر الأسبق

إشراف
أ.د / محيي الدين عفيفي أحمد
أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شلتوت ، محمود
منهج القرآن في بناء المجتمع
الأزهر الشريف – مجمع البحوث الإسلامية
١- مكانة العلم في نظر الإسلام.
٢- العبادات الإسلامية.
٣- التعاليم المحمدية واتصالها بالكون.
٢١٦ ص ، ٢٠ سم
العنوان : مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٨٢٠١م

الترقيم الدولي: 978-977-205-257-8

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تصدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعائه واهتدى بهداه .. أما بعد،،،

فلقد كان الأزهر الشريف على مر تاريخه ـ ولا يزال ـ الحارس الأمين على الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، يؤدي رسالته، ويتحمل مسئوليته في المحافظة على الدين وتراثه وعلومه الشرعية والعربية وغيرها، حتى صار كعبة العلوم الدينية والعربية والثقافية في مصر والعالم، ومركز إشعاع روحي وديني وثقافي، ينشر مباديء وأخلاق الإسلام، ويوضح المنهج النبوي في مواقف الحياة المتنوعة بعيدًا عن التعصب الأعمى، أو الاضطهاد الفكري أو المادي، مراعيًا لظروف الناس وحاجاتهم، وكتب الله له القبول فتهيأت له النفوس على مدار عقود وقرون طويلة، فأصبح الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة في العالم بتاريخها وأهدافها ورسالتها ومنهجها ووسطيتها.

إن الأزهر الشريف يضطلع بمسئولياته ويواصل مسيرته العلمية في بيان حقائق الإسلام بمنهج وسطي معتدل يحترم التعددية الدينية والمذهبية والفكرية، ويعمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة، لأجل حماية العقول من الغلو والتطرف والتسيب.

وانطلاقًا من هذه المسئولية كان الدور العظيم لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب في النهوض بالتبعات الملقاة على عاتق الأزهر الشريف في الداخل والخارج، ببيان حقائق الإسلام ومواجهة التطرف والإرهاب، وأهمية المجابهة الفكرية وبيان جهود الأزهر الشريف وجميع هيئاته حيث أكدّ فضيلته: أن الأزهر الشريف قد عاش أكثر من ألف عام ـ وسيظل ـ يُدرِّس المذاهب الفقهية، والمسائل الكلامية على افتراقها، والعلوم الإسلامية بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته ـ منذ القدم ـ في مذهب أهل السنة والجماعة، واتخذه طوق نجاة للمسلمين كلما عضّتهم نوائب التشرذم وآفات التعصب المقيت لمذهب يراه أصحابه: هو الإسلام الذي لا إسلام غيره .. وسبيل الأزهر اليوم هو سبيله بالأمس: السعي الحثيث لجمع كلمة المسلمين، ووقوفهم صفًا واحدًا في مهب العواصف والتيارات.

إن الأزهر الشريف الذي يرفع راية «جمع الكلمة» بين المسلمين، لا يتردد في مقاومة موجات الإلحاد، والتغريب، والإفساد الأخلاقي، ولا يدخر جهدًا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وليس أمامه ـ من أجل تحقيق هذا الهدف ـ إلا مواصلة السعي ـ بصدق ـ لجمع علماء المسلمين على كلمة واحدة، لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع، ولتحقيق مصالح الأمة، ودرء المفاسد عنها، ومن دون هذا الالتقاء،

فإن النتائج لن تكون على النحو الذي نرجوه لأمتنا، وتقتضيه مصلحتها في هذه الظروف التي يمر بها العالم الآن[١].

هذا، وتتعاظم آمال وطموحات الناس حول الأزهر الشريف يومًا بعد يوم، وتتعالى صيحات النداء والفزع إليه ـ بعد الله تعالى – باعتباره الملاذ الآمن للمسلمين في العالم من الانحراف الفكري، والتطرف والإرهاب ، وقد عمل الأزهر الشريف على تلبية هذه النداءات وتحقيق الطموحات، وذلك بكل هيئاته ودواوينه ودوائره العلمية والمعرفية، ومنها: مجمع البحوث الإسلامية، الذي أسهم بجهود عظيمة في العطاء العلمي للأزهر الشريف من خلال دراسة القضايا العلمية المختلفة، إيمانًا منه بدوره العلمي في تصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان وسطية وسماحة الإسلام، وأهمية التيسير ورفع الحرج عن الناس.

إن ما قدمه مجمع البحوث الإسلامية ويقدمه في هذا الصدد ليؤكد جهوده الدؤبة في خدمة الحياة العلمية والعملية للمسلمين؛ في التنظيم، والتشريع، والثقافة، والحضارة، والاجتماع، والسلوك، والأحوال الشخصية، والمعاملات، وما إلى ذلك مما يدخل في صميم الحياة ومتطلباتها.

---

(١) كلمة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د/ أحمد محمد الطيب، في افتتاح مؤتمر خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إن مجمع البحوث الإسلامية وهو يؤدي دوره باعتباره هيئة علمية وبحثية وثقافية ومعرفية بالأزهر الشريف، لا ينفصم عن واقع الناس والمشكلات والتحديات التي تحيط بهم، وظهور أنماط من السلوك وألوان من المعاملات تتطلب ضرورة بيان الرأي والشرعي والديني لها؛ حتى لا ينخدع الناس بالسيىء منها، أو ينساقوا وراء الفكر المنحرف والفتاوى الشاذة التي تعاني منها مجتمعاتنا في ظل انتشار التطرف والإرهاب.

ومن المؤلم غاية الألم أن ترتكب جرائم باسم الإسلام وباسم شريعته السمحاء، وتُنفذ العمليات المدمرة مع صيحات التهليل والتكبير، ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، الأمر الذي استغله الإعلام الغربي أسوأ استغلال في تشويه صورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينًا همجيًا متعطشًا لسفك الدماء وقتل الأبرياء، وأنه يحرض أبنائه وأتباعه على العنف والكراهية والأحقاد، وللأزهر موقف واضح في هذه القضايا قام بإعلانه وبيانه كأشد ما يكون البيان وضوحًا وجلاءً.

وانطلاقًا من دور المجمع ومسئولياته العلمية؛ فقد قام بإعادة طبع مجموعة من الكتب العلمية النافعة، والتي تتنوع موضوعاتها، وتلبي عددًا من احتياجات المرحلة الراهنة، حيث تشتمل هذه الكتب على قضايا ومسائل تتصل بالعقيدة، والشريعة، والأخلاق، والتفسير، وعلوم السنة النبوية، والثقافة الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ ليكون

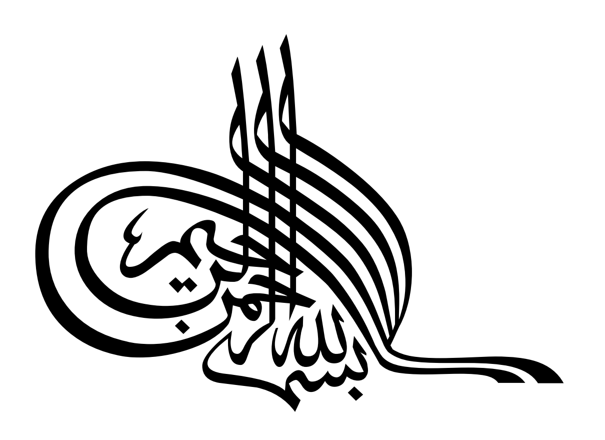
الناس على بينة من أمرهم فيما يتعلق بالأمور الدينية والاجتماعية والأخلاقية، خاصة في ظل تراجع منظومة القيم الأخلاقية، وانتشار موجات التطرف والإرهاب والتكفير والإلحاد والتسيب والإنحلال، مما يستلزم معالجة هذه المسائل من خلال الفكر الوسطي الذي يعمل الأزهر الشريف على ترسيخه.

نسأل الله تعالى القبول، وأن يكون العمل خالصًا لوجهه تعالى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وإخوانه من الأنبياء والرسل.

فإن الإسلام دين عام شامل؛ يتناول شئون الحياة جميعًا ونظام كامل، ينتظم أمور الدين والدنيا معًا، قام بنشره والدعوة إليه الهداة من سلفنا الصالح، فنجحوا في تزكية النفوس وتطهيرها بقدر ما أصلحوا من دنيا الناس، وبلغوا في ذلك شأوًا لم ينله أحد من المصلحين أو كبار الفلاسفة المربين.

ثم كان أن أهمل كثير من المسلمين حقائق دينهم، وغفلوا عن المعاني السامية التي كانت سببًا في عزهم ومجدهم، فرجعوا القهقرى في فهمهم للدين وتقلبهم في شئون الدنيا.

فكانوا لهذا في أشد الحاجة إلى من يذكرهم بحقائق الإسلام، ويجمعهم على معانيه العليا، ومن رجالات الإسلام

الذين نصبوا أنفسهم لهذه الغاية ووجهوا جهودهم في هذه السبيل فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت، وقد ألف كتاب «منهج القرآن في بناء المجتمع» عالج فيه كثيرًا من الموضوعات الإسلامية التي لا غني للمسلمين عن معرفتها.

وفضيلته من خيرة الرجال القادرين على الاضطلاع بهذا العمل المجيد.

وفقنا الله جميعًا لما يحبه ويرضاه وجزى الله فضيلة الأستاذ عن دينه خير الجزاء.

شوال سنة ١٣٧٥

أحمد حسن الباقوري

أســاس الإســلام
فى رباط المجتمع

قال الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ **(البقرة : ٢)**

وقال تعالى :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ **(الأنعام : ٩٢)**

وقَالَ تعَالَىٰ:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ **(الأنعام : ١٥٣)**

وقَالَ تعَالَىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ **(يونس : ٥٧، ٥٨)**

وقال تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

(هود: ١)

وقال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ (الإسراء: ٩)

هذا هو القرآن، نزل به الروح الأمين، على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، ليرشد الناس به إلى ما يجب أن يأخذوا به أنفسهم، وينظموا به حياتهم، ويُكوِّنوا به مجتمعهم على الوجه الذي يسعدهم في الدنيا، بالعزة والسلطان، والتمكين والهيمنة على الحق، وفى الآخرة بالرحمة الدائمة وبالنعيم المقيم فتكمل للإنسان سعادته في الأولى والآخرة.

جاء القرآن الكريم وفى العالم مجتمعات مختلفة الأسس والغايات، استمدت حياتها من أوضاع بشرية، وأفكار إنسانية بحتة، فاتخذ بعضها العصبية الجنسية أساسا للحياة واتخذ البعض الآخر أساس حياته، العصبية الإقليمية.

والعصبية الجنسية والعصبية الإقليمية. كلتاهما وليدة

نزعات خاصة لا تمت إلى القلب الإنساني، ولا إلى الصالح العام البشرى وفيما بينهما يذوب الضمير العالمي، والروح الإنساني، ويقضي على الرحم العام، الذي يقضي بالتعاون العام، وبالسلام العام، وبالحَدَبِ على المصالح العامة، ويصير أفراد الإنسان ومجتمعاته، كالحيوانات المفترسة، يفتك قويها بضعيفها، ويأكل كبيرها صغيرها .وليس من ريب في أن حكمة الحكيم، الرءوف الرحيم، تأبى أن يخلق بشرا ويسويه ويعدله بالعقل، ويفضله على كثير من خلقه، ويجعله خليفة في أرضه يظهر رحمته وجوده. ثم يتركه على هذا الوضع، يأكل بعضه بعضا.

فكان من رحمته أن أنزل الكتاب، إرشادا وهداية لما يجب أن يسلكه في تنظيم حياته، ويتخذه أساسا لمجتمعه فنحّى الجنسية العصبية، والإقليمية ونحوهما من الأسس البشرية عن مكانة الأساس الأول للجماعة الإنسانية، وسما بالإنسانية عن أن يكون اجتماعها وترابطها راجعين إلى اعتبارات، كثيرا ما تدفع بأصحابها إلى التفرق والخصام، وتغري بينهم العداوة والبغضاء فتفصم عرى الإنسانية الفاضلة، وتقضى على روح التعاون والتراحم، وتطمس

معالم السعادة والهناءة، وجعل الأساس في بناء المجتمعات الاعتصام[1] بمبدأ الخير العام والرحمة الواسعة، والعدل المطلق.

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(آل عمران: ١٠١)

وبذلك تكون الإنسانية مهما اختلفت جنسياتها، وتباعدت أقاليمها وتعددت مذاهبها وآراؤها تدور كلها حول مبدأ ثابت لا يتغير ولا يزول، ولا يعتريه نقص ولا أفول فتشعر بالوحدة وتنشط في رفعة شأنها والقيام بواجبها: يأخذ قويها بيد ضعيفها، ويواسي غنيها فقيرها، وبذلك تنمو الحياة ويسعد الناس.

---

(١) وفى سبيل الاحتفاظ بهذا المبدأ الذي يوحد بين البشرية في العقيدة والوجهة طلب القرآن التضحية بالنفس والمال والأهل والولد والجنسية وجعل إيثار شيء من ذلك محادة لله ولرسالاته التي بعث لتبليغها كل رسله وأنزل ببيانها كل كتبه ولنقرأ ذلك في آيات التضحية الواردة في القرآن الكريم.

وفى سبيله أيضا ألغى أخوة النسب إذا لم تشد أزرها أخوة الإيمان ومنع التوارث بين المؤمن وغير المؤمن وفرق بينهما في كثير من الأحكام التي كانت سببا للقرابة الطبيعية.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾

(الحجرات : ١٣)

بنى القرآن تنظيمه للحياة على هذا الأساس وجاءت كل شرائعه وأحكامه تعمل عملها في تقويته وتشييد صرحه، فعلى من أراد أن يُكَوِّن مجتمعا فاضلا يعرف مكانته في الحياة، ونصيبه في الخلافة الأرضية التي جعلت هدفا لخلق الإنسان عليه أن ينظر أى طريق يصل به إلى تكوين المجتمع على هذا الأساس وفى سبيل ذلك سيجد من معلوماته الأولية التي لا يختلف فيها صاحب عقل، يستمد أساس الاجتماع من فكرته الفلسفية وصاحب دين يستمد من هداية الله ووحي السماء. يجد من هذه المعلومات أن للإنسان في هذه الحياة شخصيتين: شخصية مستقلة، يسأل بها عن نفسه، في جسمه وعقله وروحه، ثم في عمله وماله، وشخصية أخرى يكون بها لبنة في بناء المجتمع يسأل بها عما يقدمه لمجتمعه أو يقدمه المجتمع له، وبقدر ما يكون للإنسان من إدراك الحقائق ومتانة الخلق وقوة العزيمة والإرادة وسمو الروح ونبل الغاية يكون لمجتمعه من ذلك كله. وبقدر

ما يصاب به الإِنسـان من تسـلط الأوهـام والخرافات عليه، وانحلال الخلـق وضعف العزيمـة والإِرادة وانحطاط الروح ودناءة الغاية، يكون لمجتمعه من كل ذلك.

ومـا المجتمع في واقعـه إلا الأفراد التي هـي لبناته ومنها يتكون. وما الأفراد في واقعها إلا المجتمع الذي منها تكون، فسـعادته من سـعادتها، وصلاحه من صلاحها، وشـقاؤه من شقائها، وفساده من فسادها. وإذن فالبحث عن الأساس الذي عليه يبنى المجتمع هو بحث عن اللبنات التي منها يتكون.

فـإِذا مـا صيغـت اللبنـات علـى الوجـه الذي بـه تقوى وتتماسـك في خاصة نفسـها، والـذى به تتبـوأ مكانها في بناء المجتمـع، وجد المجتمع المثالـي الفاضل، فيما بينه وبين نفسه، بالتراحم والتعاون وتبادل الخير والمنفعة، فلا نـرى مريضا وبجانبه طبيب لا ينظر إليه، ولا فقيرا وبجانبه غنـي يتمتع بفضل الله عليه، ولا يمد يـده إليه، ولا مكروبا وبجانبـه قادر على تفريج كربته ثم لا يفرج عنه كربته، ولا جاهلا وبجانبه عالم يستطيع أن يعلمه ثم لا يعلمه. ولا ضالا وبجانبه مرشـد يستطيع رده عن ضلاله ثم لا يهديه السبيل. وجد المجتمـع هكذا فيما بينه وبين نفسـه، ووجد كذلك فيمـا بينه وبين غيره من سـائر المجتمعات، قائما بنفسـه

عزيزا في وطنه غنيا بعلمه وماله، وبجميع وسائل الحياة، لا يذل لغيره من ضعف ولا يساوم بعزته لحاجة ولا يمد يده إلى غيره إلا كما يمد غيره يده إليه، فيعيش المجتمع فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين غيره، قائما بالواجبات، حاصلا على الحقوق، في جو من العزة والكرامة، لا يفكر أحد في خديعته، ولا في سلب حريته، ولا يشكو أحد من أبنائه فقرا ولا حاجة. وبذلك تكمل له السعادة، ويحصل على مجد الحياة.

غير أن صمام هذا الترابط بين الأفراد والمجتمع لابد لكى يثمر ثمرته، ويحقق غايته، ويستمر ناميا لا يتناقص، بعيدا عن الأهواء والشهوات سليما من اختلاف الآراء والنزعات، متمكنا من قلوب الأفراد والمجتمعات، لابد أن تهيمن عليه في قلب الإنسان وروحه، قوة ينبع احترامها من قلبه، فيكون للتعاليم التي يتلقاها عن تلك القوة، ويسوس بها نفسه في فرده ومجتمعه، نفس الاحترام الذي ينبع من قلبه لتلك القوة وليس ذلك إلا التعاليم الإلهية، الواصلة إليه من الله رب العالمين، والتى تضمنها وأرشد إليها كتابه الكريم:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

ﭐلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾ (الإسراء : ٩)

التبتل في نظر الإسلام

إذا كان المجتمع كما قلنا : ليس في واقعه إلا الأفراد التي منها يتكون وبها يبنى، وكان كماله من كمالها، فإنه من غير الممكن أن يسعد المجتمع مع شقاء الأفراد أو يشقى مع سعادتهم. وكان البحث عما يكون الفرد ويكمله هو البحث عما يكون المجتمع ويقومه.

وإذن فهيا بنا إلى منهج القرآن في تكوين الفرد، وإذا ما تم لنا رسم ذلك المنهج وأخذنا به الفرد، تم لنا بناء المجتمع كما يحب الله، وكما يسعى إليه المخلصون من عباد الله، وأول ما يطالعنا في تكوين الفرد على الوجه الذي يكون به لبنات قوية في بناء المجتمع المنشود، أمران لابد من توافرهما في الفرد :

أولهما : تحديد علاقته بهذه الحياة الدنيا، حتى يعرف واجبه فيها فيحققه.

ثانيهما : إحياء الشعور في نفسه بالوحدة الإيمانية، والوحدة الوطنية الخاصة، والوحدة الإنسانية العامة.

وبذلك يعرف حق مجتمعه الديني والوطنى والإنساني،

فيقوم به على الوجه الذي تقتضيه شخصيته في بناء هذه المجتمعات.

ونحن إذا استعرضنا أنواع العلاقة التي يمكن أن يتخذها الفرد بالنسبة للحياة الدنيا، والتى اتخذها بالفعل في أجيال الحياة المتعاقبة وجدناها لا تخلو عن واحدة من ثلاث:

علاقة العداء للدنيا، والنظر إليها نظرة احتقار وإعراض، وبذلك يتجه الإنسان بكله إلى تنمية روحه فقط عن طريق الاعتكاف عن العالم، والتبتل للعبادة؛ يصوم دائما ولا يفطر، ويقوم دائما ولا ينام، ويزهد فلا يشتهى ولا يتزوج، ويظل هكذا مسجونا في تلك الدائرة الضيقة من معبد أو كهف، حتى يأتيه الموت ويفارق الحياة.

وإذا خوطب من سلك هذا المنهج بالنسبة للحياة، قال: كيف لا أسلكه وأفر به من الدنيا، والله يقول:

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد: ٢٠)

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)

ويقول الرسول ﷺ: «والذى نفسى بيده، للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها» يريد شاة ميتة ألقاها أهلها

هوانا بها ويقول: «إن الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها».

وهكذا مما ورد وتناقلته الألسن خاصة في ذم الدنيا وحقارتها، فأخذها بعض الناس على ما يعطى ظاهرها من حقارة الدنيا على وجه عام، وجعلوها أساسا لإعراضهم عنها، ومعاداتهم لها، وانحازوا إلى العبادة، وحصروا أنفسهم في أماكنها بناء على فهمهم الفاسد، وقالوا:

كيف نتصل بالحياة الدنيا وهي لهو ولعب، وكيف نقترب منها وما هي إلا متاع الغرور، أم كيف لانتبتل وما خلقنا إلا لعبادة الله رب العالمين؟

وقد سلك طريق هؤلاء، في التحذير من الدنيا، وتبشيعها في نظر الناس كثير ممن نصبوا أنفسهم في الأزمنة الماضية للوعظ والإرشاد، حتى وجدت في بعض النفوس عقد نفسية منبعها ذلك التأويل المنحرف، وذلك الوعظ الذي نسج على منواله، وأضعفت تلك العقد همم الناس في الحياة العاملة، وأصبحوا في حيرة بين هذه التعاليم التي تلقوها على جهل بحقيقتها، وبين متع الدنيا ونعم الله فيها، فخارت قواهم، وتكون منهم وبهم جيل مضطرب بين تصوره وبين واقعه، فاستسلم للضعف والعجز والاستكانة، وكان سببا

فـي تلك النكبـة التي أصيب بهـا المجتمع الإِسـلامي بعد عصوره الأولى.

إن هذا المسلك قد احتقره الله في كتابه فلم يذكره لأحد من خلقه وهو بصدد ذكر مسـالك النـاس في الحياة، وإنما قصر شـأن الناس على مسـلكين اثنين، ليس هذا المسـلك واحدا منهما تأمل قوله تعالى:

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠٠، ٢٠١)

مسلكان لا ثالث لهما: العزوف عن الآخرة وجمع الدنيا مع الآخرة.

أما العزوف عن الدنيا، وهو مسلك التبتل والانقطاع فلم يذكـره الله فـي كتابه، وليس أهلا لأن يذكـره الله في كتابه. نعـم ذكره في مقـام اللائمة لبعض الطوائـف التي ابتدعته، ولم يسـتطيعوا الوفاء بحقيقته، وكانوا كاذبين في تصوره، والانحياز إليه:

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (الحديد : ٢٧)

وكيف يكون هذا المسلك شأنا من شئون الإنسان في الحياة يقره الله، ويرضى عن أهله ومتخذيه؟ وفيه:

أولا: تعطيل ما كرم الله به الإنسان، من قوى التفكير والإرادة والعمل.

وثانيا: بقاء أسرار الكون ومنافعه كامنة في أطباق الأرض وأجواء السماء، وقد سخرها الله جميعا للإنسان وسلطه عليها، ومهد له طريق إظهارها، وعمارة الكون بها، وأكثر من الإرشاد، إلى ذلك في كتابه الكريم، الذي ضمنه ما يجب على الإنسان أن يتخذه منهجا في الحياة

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٠، ١١)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ

فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(النحل : ١٤)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥)

وما خلق الله الإنسان على هذا النحو ، وسخر له الكون على هذا النحو ، وأرشد في كتابه إلى هذا الخلق وهذا التسخير ، ثم يرضى منه بعد ذلك أن يعطل قواه التي منحه إياها ، ويعطل أسراره التي أودعها في خلقه ، ويهمل إرشاداته وينحاز بكل ذلك إلى زاوية أو كهف ، منقطعا عن الدنيا التي جعله الله خليفة فيها ، يعمرها وينميها ، ويجعلها مظهرا لرحمته بعباده .

والحق أن لهو الحياة ولعبها ليسا كما يفهم أرباب هذا المسلك ينصبان على ذات الحياة باعتبار ما فيها من خير ونفع للعباد ، ومالها من دلالة على قدرة الله ورحمته بعباده ، وإنما ينصبان على من يتخذ نعم الله فيها سبيلا لشهوته وهواه ، يدنس بهما نفسه ، ويميت بهما قلبه . والحق أن عبادة الله التي خلق لأجلها الجن والإنس ، لم يكن سبيلها في هذه الحياة التبتل والانقطاع عن الدنيا ،إنما سبيلها ، تحقيق إرادة الله في كونه عن

طريق العمل في عمارة هذا الكون، وإظهار أسرار الله الدالة على عظمته ووحدانيته، واستحقاقه وحده للعبادة والتقديس.

وهكذا يجب أن يفهم الناس أن الله لا يرضى من عباده أن يزهدوا في الدنيا هذا الزهد العام المطلق، وأن ينقطعوا في الصوامع والبِيَعِ والمساجد لعبادته ومناجاته. فهو يناجى في الحقل، ويناجى في المصنع، ويناجى في المتجر، ويناجى في المجتمع، وكل تلك، مناجاة يسمعها الله، ويتقرب بها العبد لله.

وإذن فواجب المصلحين والوعاظ المرشدين أن يبذلوا جهودهم في تصفية النفوس من بقايا هذه الفكرة، وأن ينتزعوا منها تلكم العقد النفسية التي توارثها بعض الناس، أثرا للفهم الفاسد في حقارة الدنيا، والعزوف عنها وعن العمل فيها، هذا العزوف الذي نسجوا به كلمات التزموها، وعطلوا بها أنفسهم والناس عن الكد والعمل، التماسا للرزق من السماء، ينزل عليهم وهم نائمون باسم الدين والتعبد. وأصبحوا هم ومن ينحو نحوهم عالة على المجتمع، ولبنات هزيلة في بنائه، لا يلبث معها أن ينهار.

***

التكالب على الدنيا

استعرضنا الأوضاع التي يمكن أن تكون عليها علاقة الفرد بالحياة، وفرضنا لها الفروض الممكنة، وتحدثنا عن الفرض الأول منها وهو أن تكون علاقته بالحياة، علاقة الضرورة والكفاف الذي يقيم الأود، ويحفظ للإنسان حياته الشخصية، فيعتزل الناس والعمل، ويتبتل بصومه وعبادته الروحية، وأشرنا إلى الحجج الموهومة التي استند إليها الذين ابتدعوا هذا الفرض، وزعموا أنه الدين أو من الدين، ودعوا إليه وحثوا عليه، وكان من ذلك آيات من القرآن الكريم، حرفوها عن مواضعها، وصرفوها عن مقاصدها، وبشعوا بها الدنيا في نظر الناس، واتخذوها بفهمهم المنحرف أساسا للإعراض عنها، وعن العمل فيها بما تقتضيه منح الله للإنسان وسننه في الحياة، وكان منها أيضا أحاديث لم تحرر الرواية في أكثرها. وإنما وضعت أو قيلت في عصور خاصة، على ألسنة خاصة، لغرض خاص، هو صرف المسلمين عن العمل الجاد المعمر. وأحاديث تحررت روايتها، ولكن حرفت عن معناها الصحيح، كما حرفت الآيات.

أشرنا إلى تلك الحجج، وقفينا عليها بالنقض، وبيان الخطأ في شرحها، وأنها سيقت لتركيز فرض آخر غير

الــذي يعملون علــى تركيزه، وصرف الناس بــه عن الحياة، وأن الإِســلام يأبى كل الإِباء أن تكون علاقة الإِنسان بالحياة على هذا النحو الذي حاول هذا الفريق غرســه في النفوس، وليــس له نتيجة ســوى حرمان الإِنســان من أســرار الكون، وحرمان أســرار الكون من قوى الإِظهار والكشــف والانتفاع بهــا فيما أعدت له بمقتضى الخلــق والتكوين، وهو بالتالى يســلب الجماعة الإِســلامية، عــز الحياة وســلطانها، بينما يضع غيرهم يدهم عليها.

ويكون لهم فيها الســلطان النافذ، والكلمة المسموعة، والقوة المرهوبة، بما يحصلون عليه من آثار العلم الكوني، والعمــل المنتــج والتدبير المنظم، وإنــى لأعتقد أن من أهم الأســباب التي تأخــر بها المســلمون، وتخلــف ركبهم عن ركــب العالم، شــيوع أن الإِســلام يعتبــر الدنيــا، والحرص عليهــا، والكد في تحصيلها، نقصا فــي التدين، وأن كمال الدنيا إنما هو في التخفف منها والزهد فيها.

وقد أدى ذلك إلى فهم الدنيا على غير وجهها، وانتشرت البطالــة بيــن النــاس باســم الدين وكمــال الإِيمــان، ولابد للتخلــص من آثار هــذه الفكرة من عرض النصــوص القرآنية والنبوية الواردة في شــأن الدنيا، عرضا ســليما، يبعث على

العمل والتعمير وبالتالى يهيئ لجماعة المسلمين وسائل العزة والسيادة.

وإذا كان الانقطاع عن الدنيا، والإعراض عنها بالتبتل، والاكتفاء من متعها وخيرها بما يقيم الأود الشخصي، مما يأباه الإسلام، وينكره أشد الإنكار، فإن الإسلام أشد إباء وإنكارا لفرض آخر في علاقة الإنسان بالحياة، وهذا الفرض المقابل للانقطاع والتبتل، هو فرض التكالب على الجمع والادخار في محيط الدائرة الشخصية. وبذلك يركز الإنسان قواه العقلية في خدمة وجوده المادي الخاص، ويعمل على أن يبسط به سلطانه، على من سواه، ويسلك إلى تلك الغاية كل السبل التي يراها محققة لها، غير مكترث بشيء من جوانب الفضيلة الروحية، ولا الشكر الإلهى على ما هيئ له من نعم، فلا عطف ولا رحمة، ولا تعاون، وإنما هو طغيان ولعب ولهو، وتفاخر وتكاثر.

وإذا كان الفرض الأول سبيلا فقط للفردية الروحية، ولا يلائم طبيعة الإنسان ولا طبيعة الكون، فإن هذا الفرض، سبيل فقط للفردية المادية التي تقطع ما بين الناس من صلات طبيعية، وتقضى على عوامل التعاون، وبواعث النفع العام، وتغرس في النفوس الشح، وتنمى عوامل العداوة والبغضاء.

بــه ينظــر فريــق المتكاثرين إلــى غيرهم نظــرة المالك للمملــوك، ونظــرة المعبود للعابد، والســيد للمســود، لا يعتــرف له بحق ولا يســمح له بمتعة، وينظــر هؤلاء إليهم نظرة المظلوم للظالم، والضعيف للقوي، يضمر له الحقد، ويتربص به ريب المنون. وقد جربت الإنسانية في عصورها المختلفــة، وجربت مصر خاصة، هذا الفرض فلم تر منه إلا الشقاء والاضطراب، والعقم والتفرق والانقسام.

وإذا كان الإســلام حــارب فكــرة التبتــل والانقطاع عــن الدنيا بنصوصه الكثيرة التي حثت على العمل والسعي وطلبت إلى الناس أن يضربوا في الأرض، وأن يعملوا بقواهم فيما سخر لهم، من أرض للزراعة، وأدوات للصناعة، وبحار للتجارة، فإنه قد حارب كذلك، بل أشــد، فكرة التكالب على الدنيــا والعمل في تحصيلها لخاصة النفس، واعتبر هذا الغرض من دلائل التكذيب بيوم الدين:

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

(التكاثر: ١- ٨)

وقد قص الله علينا شأن كثير من المتكالبين الذين قطعوا ـ بما أعطاهم الله ـ صلتهم بالآخرة، قص علينا شأن صاحب الجنتين الذي افتخر بهما على صاحبه وقال له:

﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾ (الكهف: ٣٤ – ٣٦)

وكانت عاقبته أن:

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾

(الكهف: ٤٢)

وقص علينا أمر قارون، أنعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل مفاتح خزائنه، ونسى حق الله فيه، واعتقد ـ طغيانا ـ أنه من محض سعيه، سيق إليه باستحقاق ذاتى، فدارت عليه الدائرة، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى كان هو ودنياه في طى صحف القضاء العادل:

﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص: ٨١)

وهكـذا نجد القرآن يحذر من منهج التكالب الشـخصى في الحياة، ويجعل عاقبته الخزى والدمار والنكال.

وكمـا تسـقط المجتمعات من سـلوك أفرادها، مسـلك التبتل، تسـقط أيضا من سلوكهم مسـلك الطغيان المالى، الـذي يقطع صلة الإنسـان بأخيـه، وصلته بـالله، ثم تكون عاقبته خسران الدنيا والآخرة:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(هود: ١٥، ١٦)

وبعد:

فهذان فرضان، كلاهما مانع من تكوين المجتمع الفاضل، فعلى المصلحين، والمقومين المرشـدين، بذل الجهود في تطهيـر النفوس من فكرتى التبتل الديني، والطغيان المالي، وأن يأخذوا بها إلى الحد الوسـط الذي رسمه القرآن، ودعا إليه، وجعله منهج الحياة الطيبة، وسبيلا للمجتمع الفاضل.

الروحية المهذبة

-١-

إذا كانت سـعادة الإِنسان ـ كما تقضى به طبيعته ، وكما قرره الإِسلام ـ لا تكمل إلا باستكمال حظى الجسم والروح معا ، وأن الروحية البحتة ، أو المادية البحتة ، لا تصلح واحدة منهما سـبيلا للسـعادة ، أخذا من واقع الحياة البشرية ، فإِن الإِسلام يرى مع هذا وذاك ، أن الروحية المهذبة أساس للمادة المهذبـة ، وأن منها ينبع الـروح المهذب للمادة . وبتهذيب الـروح المهذب للمادة ، تكمل للإِنسـان سـعادته في دنياه وأخراه ، في فرده وفى مجتمعه . ومن هنا عنى الإِسلام :

أولا : بتهذيـب الروح وطالب بـه ، ولفت الأنظار إليه في مبدأ دعوته . حتى إذا ما تم على الوجه الذي يحفظ للإِنسان قلبـه وروحه ، ويربطـه بخالقه والمنعم عليـه ، انتقل به إلى المرحلـة الأخـرى ، مرحلة التنظيـم المـادي ، الذي يكون التهذيـب الروحي من أهم عوامل تركيزه وإقراره في الحياة ، والـذى يكون أثرا للضمير الحي المهذب الذي يقدر الخير للخيـر ، والحق للحق ، غير مدفوع برغبـة أو رهبة فيما وراء الحق والخير .

وقد وضع الإسلام للتهذيب الروحي جملة من الوسائل تتلاقى كلها عند غرض واحد، هو تنقية الفطرة البشرية من معاني الشرك، ونسيج الوثنية التي تطمس في القلب، صورة التوحيد النقى الخالص، الذي فطر الله عليه الإنسان، والذى يهذب منه الروح ويسمو بها في إدارة الشئون، وتحصيل وجوه السعادة العامة:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٨)

ومن أولى هذه الوسائل، التفكير في ملكوت السموات والأرض:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق: ٦ – ١١)

وبهــذا التفكير تعرف الآثــار الدالة على جلالة مصدرها، وعلى كماله في العلم والقدرة، وعلى عموم رحمته وسلطانه، فتخضــع النفــس لإرادته، وتنشــط في طاعتــه، وتتوخى في حياتها ما يرضيه ويقرب إليه:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٣، ١٦٤)

وقد صح أن النبي ﷺ، قال حينما نزل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩٠، ١٩١)

قال: «ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر».

ومـن هنا كان ذكر الله والتفكير فـي آثار قدرته، جناحين يرتفـع بهما الإنسـان عن حمأة المادة المظلمة إلى مشـرق الروحيةالمضيئـة، وقـد قلـب القـرآن فـي آياتـه المتلوة، صحف هذا الكون أمام الإنسـان، دخل به نفسـه، وصعد به السموات، ونزل به إلى الأرض، وطاف به الوديان والجبال، وغـاص بـه البحـار، ودعاه في كل ذلـك مرارا وتكـرارا إلى النظر في آياته العقلية والحسـية، وكثيرا ما أوحي القرآن أن هذه الدعوة سـنة الله في كل رسالاته إلى خلقه، عنى بها كل كتاب، واهتم بها كل رسول.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٢)

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣)

وبذلـك ربط آخـر العالم بأوله، وربط دنيـاه بأخراه، وجعل الكل وحدة تتجلى فيها وحدة الخالق، وسلطانه القوى الرحيم.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ
ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ
﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن
قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا
مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ
﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا
ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾
فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾ (النجم: ٤٣ – ٦٢)

إن تقليب النظر في الأرض وما حوت، وفي السموات وما اشتملت، أمر سهل ميسور، تدعو إليه الأبصار، وتلح به العقول، ولكن الذي جعله الله وسيلة للتهذيب الروحي، هو التفكير المصحوب بالتذكر، فهو الذي يطبع في النفوس صور الجلال الذي يملأ النفس رهبة، وصور الجمال الذي يملأ النفس رغبة، وبرهبة ما ينبغي أن يرهب، ورغبة ما ينبغي أن يرغب، ينحى الإنسان عن نفسه، صور الرهبة الكاذبة التي ليس لها مصدر يخاف، وصور الرغبة الزائفة التي ليس لها مصدر يرجى، ويترسم في رغبته ورهبته دلائل الحق التي تملأ نفسه بعظمة الخالق وحكمته، وبذلك يقتعد مكانته التي خلق لأجلها في الحياة، وهيئت له في الآخرة.

وإذا كان القائمون على التربية والتهذيب يؤمنون ـ كما هو الواقع ـ بأن السفر الروحي المهذب، لابد منه في تكوين النشء، فما علينا في طور التربية والتهذيب إلا أن نعنى العناية كلها بتوجيه النشء إلى التفكير والنظر بما يرد الظواهر إلى مصادرها. وعندئذ يجتمع لديهم الفكر والذكر، وتفتح أمامهم أبواب الروحية المهذبة.

لم يخل وقت ما للإنسان، عن التفكير فيما يقع عليه حسه، فكر في الأرض وعرف طبقاتها، وخصائص كل طبقة، وفكر في السماء، وعرف الكواكب في أحجامها وأبعادها وأضوائها، وفكر في الجبال وعرف صخورها وقممها. وفكر في البحار، وغاص في أعماقها واستخرج كنوزها. وهكذا يعمل الإنسان جهده في الاتصال بمركبات الكون وعناصره. وقد وصل في بحوثه إلى الذرة، واستخدمها فيما يريد ولكن هل نرى أنه تفكير يخدم الروح والقلب، أو أنه تفكير يخدم العقل بلذة العلم والمعرفة؟ وإن شئت قلت: هو تفكير يخدم المادة، والمادة الطاغية، ولا سبيل له بالروح، ولا بالروح المهذبة.

والقرآن حينما يضع التفكير أول الوسائل للتهذيب الروحي لا يريد هذا التفكير الجاف الذي يأخذ العقل به آثار

الكون المادية، ثم يطغى بها على الذين لم تهيئ لهم ظروف الحياة وسائل تفكيرهم، ولا درجة عقولهم، فهو تفكير شر من الجمود. وعلم شر من الجهل، لا يريده القرآن ولا يعرفه. وإنما يعرف الآثار مسندة إلى مصدرها الذي أنعم بها. وعندئذ يشكر ولا يكفر.

وأن هؤلاء الذين قصروا التفكير على بعض نتائجه، أو على أحد هدفيه وأغفلوا النظر إلى الهدف الآخر، وهو أسمى الهدفين في نظر القرآن ممن قال فيهم:

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾

(الكهف: ١٠١)

وقال فيهم:

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ (طه: ١٢٤)

وقال فيهم:

﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ (الكهف: ٢٨)

أما بعد:

فهذه هي الوسيلة للتهذيب الروحي، تفكير في خلق الله، وذكر الله، ففكر واذكر، تحظ بالرضا والقرب. وتسعد في الدنيا والآخرة.

وإذا كان الإسلام يحارب علاقة الإنسان بالحياة الروحية البحتة، كما حارب المادة البحتة، ورأى أن الروحية البحتة، سبيل التعطل وإهمال لقوى العمل المودعة في الإنسان، ولقوى الإنتاج المودعة في الكون وأن المادية البحتة، سبيل لقتل المعاني الفاضلة، وتدفع بالإنسان إلى جوانب الطغيان، المفسد للحياة، كان من ضرورة ذلك، أن يدعو إلى المزاوجة بين حظوظ الجسم المعتدلة، وحظوظ الروح المعتدلة، ويبنى منهجه في ذلك على الواقع الطبيعي للإنسان.

والإسلام دائما ينظم بأحكامه واقع الإنسان بما يقف به في الحد الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، الإنسان، في واقعه جسم وروح، وللجسم حظ ومتعة، وللروح حظ ومتعة. وكمال سعادته إنما تكون باستكمال حظى الجسم والروح معا. ومن هنا نراه في كثير من نصوصه يرفع عن الإنسان الحجر في التمتع بملاذ الجسم المعتدلة، ويبيح له، بل يغريه ويأمره بالطيبات، في مأكله ومشربه وملبسه

ومسكنه، وفى حاجة نفسه من الزوجة والمال والولد. وينكر أشد الإنكار على من يحرم على نفسه شيئا من ذلك مع القدرة عليه. ونراه في الوقت نفسه، يدعوه بإلحاح إلى أن يمتع روحه بالعلم عن طريق التلقى والقراءة، وعن طريق الفكر والنظر.

وقد صح أن أناسا جاءوا إلى زوجات النبي ﷺ يسألون عن عبادته فيما بينه وبين الله التي غفر له بها ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأن أحدهم قال: «إنى لا آكل اللحم أبدا»، وقال آخر «وأنا لا أتزوج النساء»، وقال ثالث: «وأنا لا أنام على فراش»، فبلغ أمرهم إلى النبي ﷺ، فخرج إليهم غاضبا وقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا وإنى لأخشاكم لله وأتقاكم، ولكنى أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى».

وصح أنه قال لآخرين، أرادوا رفض الدنيا والترهب «إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع، فاعبدوا الله ولا تشركوا به واستقيموا يستقم بكم».

وصح عنه أنه قال: «ليس في ديني ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع»، وقال: «إن الله تعالى طيب لا يقبل

إلا طيبـا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسـلين ، فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَـٰلِحًاۖ ﴾
(المؤمنون : ٥١)

وقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقۡنَـٰكُمۡ ﴾
(البقرة : ١٧٢)

واقرءوا في هذا المبدأ قوله تعالى :

﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة : ٩٣)

وقوله تعالى :

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًاۖ ﴾
(الأعراف : ٢٦)

﴿ ۞ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٣١) قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۗ ﴾ (الأعراف : ٣١ – ٣٢)

والسر في ذلك أن الطيبات نعم الله على الإنسان ،والله يحب من عباده أن يقبلوا نعمه التي تدعو إليها فطرهم ، ويحب أن يرى أثرها عليهم ، ويكره لهم الجناية على فطرهم بمنعها حقها .

ولقد كانت تلك التعاليم التي لبى بها الإسلام داعية الفطرة ، عاملا قويا في شيوع الحضارة البشرية في مظاهر هذه الحياة ، فقد أرشدت على وجه عام إلى ما يجمل به الإنسان نفسه ، وخاصة في مناسبات التجمل بالزينة والرياش ، ولفتت الأنظار إلى أن تقوى الله إنما هي في الانتفاع بتلك النعم ، وأوحت بذلك إلى إحياء صناعة الطيبات ، وصناعة اللباس ، كما أوحت إلى الجد في تحصيل موادها مما تنبت الأرض ، وأوحت إلى أن ستر العورة وما يثير الغرائز ، من أهداف الحكمة الإلهية في تقرير هذا المبدأ ، وإلى أن سنة العرى التي تألفها بعض القبائل المتوحشة ، وإبداء شيء من مفاتن الجسم كما نراه اليوم في دعاة الحضارة الزائفة ، مخالف للأدب الإنساني العام ، ومناف لما تقتضيه الطبيعة الآدمية من التحفظ والابتعاد عن مظاهر التبذل وعوامل الفتن .

وما كان ذكر المسجد في الأمر باتخاذ الزينة إلا مثلا للمجتمعات الفاضلة ، التي يجب أن يظهر فيها الإنسان

بنعم الله عليه. ولعلنا ندرك من هنا سر الإرشادات النبوية التي تدعو إلى التطيب، وحسن الملبس في مجتمعات الصلاة والأعياد، والمناسبات الجامعة.

بهذا ونحوه، عدل الإسلام الجانب الروحي في الإنسان.

ولكن الإسلام مُنِيَ كما أسلفنا بقوم تأثرت نفوسهم بمظاهر الرياضة الروحية التي عرفت عند بعض الأمم، ولم تهتد إلى ما يردها عن الشذوذ فيها. ورأت أن أساسها يدعو إلى التقشف وطرح التجمل، ومعالجة النفس في تعويدها الحرمان من متع هذه الحياة.

وقد اندفع سيل من تلك الأمم على البلاد الإسلامية، ووجد من أبناء الإسلام من شق له الأنهار وحفر له الجداول، فانساب في النوادى الإسلامية، وأنبت كلمات أسندت فيما بعد إلى الرسول ﷺ، وكان لتلك الكلمات أثرها عند كثير من الناس في فهم الإسلام على غير وجهه، ومنها: «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله» وأنه: «ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش»، «لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه»، «سيد الأعمال الجوع وذل النفس، ولبس الصوف». وما إلى ذلك مما يقرأ الناس في كتب التصوف التي دخلت على الدين بشيء كثير.

والحمد لله الذي قد هيأ للحق ما كشف عنه ستار الباطل. فقد علق الحفاظ على هذه الكلمات وأمثالها بأنه لا يوجد لها أصل في صحيح المروى عن الرسول ﷺ.

نعم اتخذ في إباحة التمتع بزينة الحياة ـ جريا على مبدأ الاعتدال الذي بنيت عليه سائر أحكامه ـ تَحَفُّظَين شدد في مراعاتهما: حسن النية، وهو يكون بقصد شكر الله على نعمه لا بقصد التفاخر والخيلاء، ثم الوقوف فيها عند حد الاعتدال حتى لا يقع الإنسان في الإسراف:

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل: ١١٤)

وبهذين التحفظين اللذين يحققهما شكر الله والاعتدال، حارب الإسلام الترف والبذخ والتبذير فيما لا يعود على النفس ولا على الأمة بخير.

وفى الحق أن الترف غول الأمم، يأكل فيها مكارم الأخلاق، وينزل بها إلى مهاوى التهلكة.

وقد اعتبر الإِسلام الإِسراف الترفى من موجبات الحجر، احتفاظا بأموال الله التي هي قوام الحياة وعصبها للفرد والجماعة، وتطهيرا لصدور المعدمين من الحقد، الذي تولده وتنميه مظاهر السرف المحيطة بهم، وهم محرومون من حاجتهم الضرورية والمعيشة المطمئنة المريحة.

هذا هو موقف الإِسلام في تعديل الروحية وتهذيبها، وفى علاقة الإِنسان بزينة الحياة، يقطع السبيل على الذين يحاولون تشويهه، ويرد زيفهم إلى نحورهم، ويرشد إلى أن روحية الإِسلام تعانق المادية الفاضلة كأن الإِسلام بتعاليمه الواضحة في هذا المقام لا يمكن أن تستغنى عنه أمة، تريد حياة طيبة مضيئة، في ظل من الأمن والاستقرار.

-٣-

اتضح أن الإِسلام وضع للتهذيب الروحي جملة من الوسائل. تعمل كلها على تنقية الفطرة من ألوان الشرك وصوره المختلفة التي تطمس في القلب صورة التوحيد الخالص، الذي فطر عليه الإِنسان، وربطت به سعادته في الدنيا والآخرة.

ورأينا أن التفكير في ملكوت السموات والأرض، كان أول ما عنى به الإِسلام وأرشد إليه من تلك الوسائل. إذ به تعرف الآثار الدالة على جلال مصدرها وكماله في العلم والقدرة، والسلطان والرحمة. ومن هنا تخضع النفوس عن طريق برهانى، عقلى ووجدانى لإِرادة مصدرها، رب العالمين، الرحمن الرحيم. ويعظم لديها الوعى الديني الذي يخلق فيها النشاط لطاعته، تحرى ما يرضيه في معاملة النفس، ومعاملة الناس.

وأن هذا التفكير الذي دعا إليه الإِسلام للحصول على تلك الغاية لم يكن هو ذلك التفكير الجاف الذي يسخره الإِنسان في سبيل المادة فقط. ويستخدم آثاره التي يحصل عليها في العدوان. وتخريب المدائن والعمائر، وترويع الآمنين، والقضاء على نعم الله في خلقه. كما يدرك ذلك

الآن المتحسس لنفسيات العالم في شرقه وغربه، وإنما هو تفكير يطمئن القلب ويخدمه. قبل أن يخدم العقل ودون أن يروع الآمن. تفكير ينزع بالإنسان إلى جانب الروحية المهذبة التي تدعوه إلى استخدام ما يصل إليه عن طريق التفكير في المحافظة على الإنسانية، والأخذ بها إلى الكمال الذي قدر لها وخلقت لأجله.

وقد كان للقرآن في الدعوة إلى هذا التفكير أساليب مختلفة من شأنها مضاعفة الرغبة التي تدفع الإنسان إليه، فمن أسلوب يعلن أن الله ما خلق السموات والأرض باطلا لا خير فيهما، وإنما خلقهما لغاية قضت بها الحكمة الإلهية في خلقهما وخلق الإنسان:

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾

(آل عمران: ١٩١)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ
أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ
نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾

(الأنبياء: ١٦ – ١٨)

ولا باطل ولا لعب أكثر ولا أشـد مـن الإعراض عن النظر فيمـا خلق الله. هذا الإعـراض الذي تظل به أسـرار الرحمة كامنـة في جوف المخلوقات دون أن تعرف، ودون أن تظهر بها الرحمة في خلقه. وكذلك لا باطل ولا لعب بل لا طغيان ولا عدوان أكثر ولا أشـد مـن معرفتها والوصـول إليها، ثم استخدامها في التخريب والتدمير، والقضاء بها على أخضر العالم ويابسه، انقيادا لشهوة زائفة، أو جبروت كاذب.

ومـن أسـلوب يعلن أن الله ما خلق العالـم على هذا النحو المملوء بالأسرار والسـنن التي هيأ الإنسان للوصول إليها، إلا لينتفع بها الإنسان:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

(البقرة: ٢٩)

وليس من شك في أن الانتفاع بها ينتظم الانتفاع بأعيانها في الحياة الماديـة، وبإدراكها في الحياة العقلية، وبدلالتها في الحياة الروحية والآية ترشـد بعـد هذا إلى أن مواطن هذا النفع ليسـت خاصـة بظواهر هذا الكـون، وإنما هي مبثوثة فـي ظاهره الـذي نحصل عليـه بمجرد النظـر، وفى باطنه الـذي نحتاج إلى قـوة في اقتحامه وخوض غمـاره. وفى هذا

إيحاء بالبحث عما استقر في باطن الأرض وطبقات الجبال، وقاع البحار، وما يحمل الماء والهواء من قوى الإنتاج ومواد الصناعة والتعمير.

ومن أسلوب يؤكد للإنسان أن الله سخر له هذا الكون، وأقدره على استخراج أسراره وجعله في قبضة يده، ومتناول عقله

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠)

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٢)

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾

(ص: ٣٦)

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (سبأ: ١٠)

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ (سبأ: ١٢)

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(الحديد: ٢٥)

ومن أسلوب ينبه إحساس الإنسان إلى التطلع نحو بعض المخلوقات، ذات الشأن في الحياة، فيندفع إلى تلمس ما

اشتملت عليه من آيات وأسرار ومنافع وآثار وقد استخدم في هذا الأسلوب، قسم الله ـ الغنى عن القسم ـ بهذه المخلوقات :

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾

(الشمس : ١ – ٨)

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴾

(العاديات : ١ – ٥)

ومن أسلوب يوجه الأنظار إلى أصول جملة من الثروات التي تتكون منها الاقتصاديات الضرورية في حياة الأمم ونهضتها، ففى الثروة الحيوانية :

﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ (النحل : ٥)

وفى الثروات النباتية :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ

وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ (الأنعام: ١٤١)

وفى الثروات المائية:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل: ١٤)

وفى الثروات الجبلية:

﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (فاطر: ٢٧)

ومن هذه الآيات ونحوها وهو كثير واضح في القرآن، يتجلى أن الإسلام قد وجه الإنسان إلى بحث الكائنات، وتعرف خواصها وأسرارها، والانتفاع بها في بناء الحياة، على أساس أنها نعمة من نعم الله، وآثار رحمته بعباده، تقابل بالشكر والحمد والثناء، وشكرها هو الإيمان بمصدرها، واستعمالها فيما ينفع الخلق وعمارة الكون.

وبينما نرى القرآن يدعو إلى التفكير على هذا الأساس، نراه ينعى خطة الذين فكروا وعرفوا دون أن يتخذوا من تفكيرهم غذاء للقلوب، ومددا للأرواح :

﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (النحل : ٧٢)

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (النحل : ٨٣)

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف : ١٧٩)

وإذا كان هـؤلاء مع بحثهـم، وتعرف أسـرار الكون، في منزلـة الأنعـام، الذين ليـس لأرواحهم حظ فيمـا يحصلون عليـه مـن المنافـع المادية. فمـا بال قـوم ألغـوا عقولهم، وسـلبوها الاسـتعداد الفطرى للنظر والبحـث، واكتفوا من النظر بتقليب الوجوه في بناء السـماء وزرقتها، والكواكب وكثرتهـا، والجبال وضخامتها والبحـار وأمواجها، وحرموا أنفسـهم من التمتع بالمادة التي تبنى الحياة. وبالعلم الذي يغذى العقل. وبالدلالة التي تغذى الروح؟

وكم يضيق الإنسـان ذرعا حينما يرى المسلمين ـ وتلك تعاليم كتابهم وإرشـاداته ـ في حرمـان من اللذات التي ربط الله بها سعادة الناس، وحثهم على تحصيلها والانتفاع بها!! وكم يشـتد ضيقـه حينمـا يراهم فيهـا عالة علـى غيرهم، يأخذونهـا عنهـم، علـى أنهـا علومهـم ونتائـج بحوثهم،

ويأخذونهـا بمنهجهم في قطعها عـن مصدرها المنعم بها، المسخر لها!!!

ولقـد كان هذا الموقف من المسـلمين، مما هيأ لغيرهم أن يتهموا الإسـلام بالجمود. وأنه ديـن يعترض التقدم، ولا يسـمح بلذة العلم ولا بعزة الحياة. وبذلك اندفعوا إلى بلاد الإسـلام باسـم العمل على تقدمهم، يختبـرون فيها الجبال والوديـان، ويحصلون علـى الخير من بواطنهـا، ويتخذون فيها لذلك المراكز الشرعية التي بها يستعمرون.

ألا وإن واجب المسـلمين اليوم وقد تكشـفت لهم نوايا القوم، وذاقوا منهم ومن جهلهم بأسـرار الكون ما ذاقوا، أن يسـتأنفوا لهم حياة جادة عاملة،عمادهـا، البحث والنظر، والانتفاع بما سـخر لهم في مواد الحياة وبذلك يستجيبون لله فـي دعوته، ويحفظون لأنفسـهم سـلطان الدنيا ومكانة الآخرة.

الإسلام دين العقل والعلم

قد كان موقف القرآن في الحث على التفكير في ملكوت السموات والأرض بأساليبه التي عرضناها، برهانا واضحا على مكانة العقل والعلم في نظر الإسلام، إذ العقل آلة التفكير، والعلم ثمرته. وإذن يكون كل ما ورد في القرآن حثا على التفكير، هو إعلانا عن فضل العقل، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته، وهو في الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم، وإيحاء بتحصيله، فيقف الإنسان على الحقائق، وتزول عنه غشاوة الجهل، ويحرر من رق الأوهام والخرافات.

وبذلك كان الإسلام، دين الفكر، ودين العقل، ودين العلم، وحسبنا أن رسوله لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير. ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٠، ٥١)

وقد ارتفع القرآن بالعقل، وسجل أن إهماله في الدنيا سيكون سببا في عذاب الآخرة، فقال حكاية لما يجرى على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والعمل به:

﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

(الملك: ١٠)

وكذلك ارتفع بالعلم وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ (آل عمران: ١٨)

ثم جعلهم وحدهم هم الذين يخشون الله من عباده، بما أدركوا من آثار قدرته وعظمته، فقال بعد أن لفت الأنظار إلى نعم الله وآياته:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر: ٢٨)

وكان من مقتضيات أن الإسلام دين العقل، ودين العلم، أنه حذر اتباع الظن، وجعل البرهان والحجة، أساس الإيمان:

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام: ١٤٨)

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾
(يونس: ٣٦)

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (النجم: ٢٨)

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)

وقد رفع من شأنه فعبر عنه بالسلطان:

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (غافر: ٣٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾
(غافر: ٥٦)

وهكذا كان العقل، وكان العلم والبرهان في نظر القرآن.

ومن هنا كثرت آيات القرآن الكريم الواردة في ذم التقليد وجرى الخلف وراء السلف، دون نظر واستدلال،

هؤلاء الذين ورثوا عقائدهم وآراءهم عن آبائهم وأجدادهم لا لشيء سوى أنهم آباؤهم وأجدادهم. وكأنهم يرون أن السبق الزمني، يخلع على خطة السابقين وآرائهم في المعتقدات، وأفهامهم في النصوص، قداسة الحق وسلطان البرهان، فالتزموها وتقيدوا بها، وسلبوا أنفسهم خاصة الإنسان، خاصة البحث والنظر. وفى هذا الشأن يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ (البقرة: ١٧٠)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ (المائدة: ١٠٤)

حكى عنهم الجمود على ما كان عليه سلفهم، فهم يرثون أفكارهم وآراءهم، كما يرثون عقارهم وأرضهم، وحكى عنهم اكتفاءهم بمعتقداتهم الموروثة، ووقوفهم بأنفسهم عندها دون أن يتجهوا إلى الترقى والتدرج في العلم والعمل. ولا شك أن كلا الموقفين: الجمود عند الموروث والاكتفاء به، مصادم لما به تقضى طبيعة الكون وطبيعة كل حى، من النمو والتوليد.

والتناسل الفكرى، كالتناسل النباتى والحيوانى والإنساني، كلاهما شأن لابد منه في الحياة. ولو وقف التناسل الفكرى لارتطم الإنسان في حياته بكثرة ما تلد

الطبيعيات التي هو منها، وعندئذ يعجز عن تدبير الحياة النامية التي لم يقدر لها النماء إلا خدمة له، وسبيلا لخيره ونفعه، فيتحقق فشله في القيام بمهمة الخلافة الأرضية التي اختير لها ووكلت إليه منذ القدم. وإذا كان الجمود على آراء المتقدمين لمجرد أنهم متقدمون، مصادما لقانون النمو والتناسل الطبيعي، فهو في الوقت نفسه، سلب لمزية الإنسان في التمييز بين الحق والباطل، والملائم وغير الملائم، فيفعل ما يفعل دون عقيدة ويترك ما يترك دون عقيدة. ومثل هذا لا يجد لنفسه حظا في أن يفعل أو في أن يترك وإنما يقاد بالزمام، وزمامه صور الآباء والأجداد، فهي دائما تجذبه القهقرى ولا يجد من نفسه عونا على التقدم، فيقع في ضيق من الحياة المتجددة حوله:

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾
(الأعراف: ٢٨)

ويظل كذلك حتى تنزل به غاشية من صولة الطبيعة النامية، فتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون.

ونهاية القول أن الجمود على آراء المتقدمين، وخططهم في العلم والمعرفة، وأسلوبهم في البحث والنظر، جناية على الفطرة البشرية، وسلب لمزية العقل التي امتاز بها الإنسان، وإهدار لحجة الله على عباده، وتمسك بما لا وزن له عند الله.

هذا وقد نشأ المسلمون في ظل ما قرره الإسلام، ودعا إليه القرآن، ففكروا وبحثوا وتعقلوا، وطلبوا البرهان، وأنكروا التقليد، فسادوا وسادت بهم الأمم، ثم لأمر ما انقلبوا على رءوسهم، وتعفنت أمعاؤهم، وتولدت في أدمغتهم حمى التقليد، فجهلوا أنفسهم، وجهلوا الكون، وجهلوا الحياة، وتفرقوا في دين الله، وكانوا شيعا، فأبطلوا حجة الله على خلقه، وصاروا حجة على دينه وشرعه.

زعموا أن لآبائهم عصمة تمنعهم من النظر في أقوالهم.

وبذلك لبس الدين فيما بينهم أثوابا مختلفة الألوان، مختلفة النسج، وراجت عند الجميع البدع والخرافات وعقدت على دين الله غبارا كثيفا، فنفر الناس منه، وأعرضوا عنه، واتهموه بالاضطراب بين حلال وحرام، وصحيح فاسد، وقوى وضعيف!!! وأخذوا يتأهبون للخلاص، ناقمين على طوائف الدين مواقفهم من موروثاتهم التي جعلته في جانب وحياة الناس في جانب آخر.

ألا فليعلم هؤلاء جميعا أن صدر الحياة الذي يتسع كل يوم وكل ساعة، أصبح غير قابل لضغط تضيق به رقعته ويرجع إلى أغلال الموروثات الأولى، فلينظروا في أى وضع يكونون، وعلى أى منهج يسيرون. حتى يحفظوا لله شرعه، ويقيموا له دعوته.

مكانة العلم في نظر الإسلام

لم يخلق الإنسان في هذه الحياة ليعبث أو ليلهو، ولم يخلق ليطغى بقوته وجبروته ويستبد قويه بضعيفه، وإنما خلق وركب فيه ما ركب من قوى العلم والإدراك وآلات العمل والإنتاج، وسخر له الكون في أرضه وسمائه، ومائه وهوائه لحكمة سامية تعبر عن جلال الله وجماله، وهي أن يكون خليفة في الأرض، يعمرها ويعمل على إصلاحها، واتساع عمرانها، وإظهار أسرار الله فيها، وإقرار الخير والسعادة في نواحيها. وبذلك تكون مظهرا لرحمة الله بعباده، وآية من آيات قدرته وحكمته.

وقد أرشد إلى هذه الحكمة كثير من آيات القرآن، منها قوله تعالى وهو يحدث عن مبدأ خلق الإنسان:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ

يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠ - ٣٣)

فتجلت للملائكة حكمة استخلاف الإنسان في الأرض، واعترفوا له بالمكانة التي أعدت له في هذه الحياة، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ (الأنعام: ١٦٥)

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾ (الحديد: ٧)

وقوله:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ (ص: ٢٦)

وإذا كانت هذه هي مهمة الإنسان في الحياة، وهي حكمة خلقه، وحكمة الإنعام عليه بقوى العلم والعمل، وحكمة تسخير الكون وإخضاعه له في التفكير والتصريف، فإنه لا سبيل إلى قيامه بهذه المهمة وتحقيق تلك الحكم إلا إذا

تحصن بالعلـم ليعرف الخير من الشـر ، والنافع من الضار ، والمعمـر مـن المخرب ، وتحصـن كذلك بالصحـة ليكمل عقله ، ويسلم تدبيره ، وتتصل جهوده .

فالمعرفـة والصحة عنصـران لا بد منهما في قيـام الحياة علـى الوجه الذي يحقق حكمـة الخالق في الخلق ، وليس في الحياة شـيء إلا وهو محتاج إليهمـا ، متوقف عليهما ، وليس فيمـا نعلـم مقوضا لأصـل السـعادة ، وقاضيا علـى الهناءة ، ومفككا لعرى التعاون ، ومضيعا للعزة والسلطان مثل الجهل والمرض ، فهما بحق أصل البلاء ، ونذير الاضمحلال والفناء .

ومن هنا عنى الإِسـلام عناية كاملة بالإِرشاد إلى الوسائل التي تطهر المجتمع مـن الجهل ، والتى تطهره من المرض ، فهو قد حـارب الجهل وتتبعه في كل وكـر من أوكاره ، وفى كل لون من ألوانه : حارب جهل الشـرك بالتوحيد ، وبث في النفـس والآفـاق دلائله ، ولفت الإِنسـان إليهـا ، وحثه على النظـر والتفكيـر فيها ليؤمن بـأن العظمة التـي يخضع لها ليست لأحد سواه ، فلا تعترضه في طريق الكمال ما ينسجه الإِنسان حوله من صور العظمات الزائفة .

حارب جهالة التقليد وأنكر على الإِنسـان أن يسلم عقله لغيـره ، وأن يقف في عقائده ومعارفه ووسـائل الحياة عندما خلفه الآباء والأجداد من الأوهام والخرافات .

حارب جهالة الأمية وأوحي بتعلم القراءة والكتابة، ورفع من شأن التعلم، ولابد هنا من وقفة يسيرة لنرى مبلغ عناية الإسلام بمحو الأمية، والإرشاد إلى وسيلته.

وحسبنا في ذلك أن يكون أول نداء إلهى يفتتح به الله باسم «الربوبية» وحيه إلى نبيه محمد ﷺ. تلكم الآية الكريمة :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ١ – ٥)

يأمر بالقراءة، والقراءة سلم المجد، وطريق العلم والمعرفة، ثم يرشد إلى الاستعانة عليها باسم «الرب» مفيض التربية ووسائلها على جميع الخلق، فيشعر الإنسان بعزة شأنها ورفعة قدرها، وأنها من الشئون العظمى، ذات البال والخطر، ثم يذكر خلقه وتكوينه في هذا المقام ويردفه بنعمة العلم

﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ٤ – ٥)

وبذلك يسوى بين نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة العلم، ويكون ذلك إيحاء بأن المخلوق الجاهل لا اعتداد بوجوده

في هذه الحياة . تنويها بشأن القلم ومكانته في العلم والمعرفة، يقسم به الله في معرض تبرئة الرسول عليه السلام من تهمة الجنون:

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾
(القلم: ١ - ٢)

وكما يطلب القراءة على الإطلاق دون تقييد بمقروء مخصوص، يطلب العلم والنظر على الإطلاق، دون تقييد بمعلوم مخصوص أو منظور مخصوص.

﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ (الزمر: ٩)

ويرشدنا هذا الإطلاق إلى أن «العلم» في نظر القرآن ليس خاصا بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام.

وإنما العلم في نظره هو كل إدراك يفيد الإنسان توفيقا في القيام بمهمته العظمى التي ألقيت على كاهله منذ قدر خلقه . وجعل خليفة في الأرض، وهي عمارتها، واستخراج كنوزها، وإظهار أسرار الله فيها.

فإدراك ما يصلح به النبات وينمو ويثمر، وما تستنبت به الأرض وتحيا، علم.

وإدراك مـا يصلح الحيوان، ويسـتمر به نسـله، وتتصل قوته، علم.

وإدراك الطـرق المشـروعة التي تحصل الأمـوال، والتى تنظم بها مواردها، ومصارفها علم.

وإدراك مـوارد الصناعة على اختـلاف أنواعها وكيفياتها وتوزيعها علم.

وإدراك الأمـراض وعللها وكيفية علاجهـا وطرق الوقاية منها، علم.

وإدراك ما تعرفه الأمم من وسائل الدفاع والهجوم، حفظا للأوطان، ودفعا للعدوان بما يرهبهم، علم.

وقد جاء الإِيحاء بهذا كله واضحا جليا في القرآن الكريم، وبـه كان العلـم ـ بمعناه العام الشـامل ـــ العنصر الأول من عناصر الحياة في نظر الإِسلام.

وقد أدرك المسـلمون الأولون إيحاء القرآن في كل ذلك، فأدركـوا قيمـة العلـم ومنزلتـه وضرورتـه في سـعادة الأمم والأفـراد: كانـوا أمة أمية لا تقـرأ ولا تكتب فجدوا في محو أميتهم بكل الوسـائل حتى أطلقوا سراح الأسير إذا هو علّم عددا من أبناء المسـلمين القراءة والكتابـة، وجعلوا تعليم

القرآن مهرا في الزواج، وأطلقوا لأنفسهم سراح النظر في الكائنات، فأدركوا منها ما يسعدهم في الحياة ويجعلهم أئمة يهدون بأمر الله.

رفعوا بالعلم مكانة الخامل، وكان فيما بينهم نسب الوضيع، وغنى الفقير، وقوة الضعيف . وفى بطون التاريخ والمكتبات الإسلامية والعالمية من المؤلفات والمترجمات في شتى العلوم والفنون والصنائع وجميع فروع العلم والمعرفة ما يشهد لهم بالتركز العلمى، ويشهد لكل جيل بمنهجه في علمه ومعارفه التي وصل إليها بجهوده وتفكيره دون الوقوف عندما ترك السابقون، بل نظروا وبحثوا، واختاروا واختبروا وابتكروا، وبذلك اقتعدوا مكانة الأستاذية العامة المطلقة . وكانوا حقا جديرين بأن يكونوا كما وصف الله :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

تسلك إلى الخير طريقه، وتسد دون الشر سبيله.

هذه مكانة العلم في بناء المجتمع كما يقررها القرآن ويوحي بها، وإنى أرجو أن يكون الزمان قد هيأ نفسه

ليستدير بالمسلمين كهيئته الأولى، وأن يكونوا بما وقعوا فيه من إحن ومحن قد تكاملت في نفوسهم عوامل اليقظة والوعى، وآمنوا بأن عزة أسلافهم وعزة الناس من حولهم، كان العلم أول عناصرها وأقواها، وآمنوا بأن الذلة، وتهافت الأمم عليهم التي نكبوا بها، كان الجهل والتلهى بالشخصيات والنظريات والجدليات والفروض الوهمية والأوهام والخيالات، والعناية بما يكنه الغيب عن طريق الدجل، كان كل ذلك أول عناصرها وأقواها.

وإنى لأحس إحساسا قويا بأن النهضة العلمية آخذة بإخلاص القائمين بها المشرفين عليها، الفاهمين لها ـ طريقها إلى ما يمحو الأمية ويحقق للأمة الخير والسعادة، ويرد آخرها إلى أولها فتنعم بما نعموا، وتسعد بما سعدوا، ونخلع ما نحن فيه من ذل وشقاء، وتكون العزة كما يحب الله:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

(المنافقون: ٨)

الوقاية من الأمراض في نظر الإسلام

إن عناية الإِسلام بالصحة لم تكن أقل من عنايته بالعلم، ذلك أن الإِسلام كما قلنا مرارا، يبني أحكامه على الواقع، والواقع أنه لا علم إلا بالصحة، ولا مال إلا بالصحة، ولا عمل إلا بالصحة، ولا جهاد إلا بالصحة، والصحة رأس مال الإِنسان، وأساس خيره وهناءته، ومن هنا عرض القرآن الكريم للمرض، وكان له في تشريعه الذي يعالج به القلوب، أعظم إيحاء وأوضح إشارة إلى اتخاذ وسائل الصحة البدنية والوقاية الصحية.

وإذا كانت أصول الطب التي وصل إليها الإِنسان بتجاربه تدور حول حفظ القوة وعدم مضاعفة المرض، والحماية من المؤذيات، واستفراغ المواد الفاسدة من البدن - فإِنا نجد في القرآن وفى إرشادات النبي ﷺ إشارات واضحة إلى كثير من الجزئيات والأمثلة التي تمثل هذه الأصول الطبية.

وأول ما نجد من ذلك أن الإِسلام يبيح للمسافر أن يفطر في رمضان، حتى لا تجتمع مشقة السفر مع مجهود الصوم، فتضعف القوة، وتفقد المناعة، وكذلك يبيح للمريض أن يفطر حتى لا يزداد مرضه بالصوم وعدم الغذاء، ويبيح لمن

خاف المرض، وتأخر البرء باستعمال الماء في الوضوء أو الغسل أن يتيمم، وهذا كله من قبيل الحماية مما يؤذي، ومن هذا القبيل تحريم الخمر والخنزير، والإسراف في الأكل والشرب وما إلى ذلك من كل ما يضر ويؤذى.

وأباح للمحرم إذا طرأ عليه مرض، أو وجد برأسه أذى، أن يحلق رأسه، ويزيل شعثه مع تمام إحرامه، فتزول الأبخرة المؤذية، وهذا من قبيل استفراغ المواد الفاسدة. وقد جاءت آية كريمة تشير إلى الحماية من الأذى وهي قوله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

قررت الآية أن دم الحيض أذى ضار، وهكذا قرر الأطباء: قالوا إن وقت الحيض أنسب وقت لانتشار العدوى في الجهاز التناسلي بسبب ما يحدثه من الالتهابات التي من طبيعتها تقوية الجراثيم المرضية وإكثارها، وإن دم الحيض يضعف درجة الحموضة التي تقاوم الجراثيم.

هذا وقد كانت الإرشادات النبوية واضحة جلية في العلاج والوقاية جاء فيها الأمر بالتداوى، وجاء فيها التحذير من

العدوى، وجاء الأمر بعزل المرضى عن الأصحاء «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها» ويشير الحديث إلى وقت حضانة المرض المعروف في لسان الأطباء «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد» وجاء فيها النهى عن قضاء الحاجة من بول أو براز في الماء الذي يستعمله الناس في وضوئهم واغتسالهم وسائر شئونهم، وفى طريقهم الذي عليه يمشون، وفى ظلهم الذي به يستظلون، وموارد مياههم التي عليها يجلسون، ومن ذلك شواطئ الترع والقنوات والأنهار «اتقوا الملاعن الثلاث، البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل».

وأطلق الرسول عليها الملاعن لأنها تسبب لعن الناس لمن يفعلها، وقد ثبت طبيا أن هذا الصنيع مع قذارته وتقزز النفوس منه يولد أمراضا وبائية، كما يولد أمراض الإنكلستوما، والدوسنطاريا، وهذا هو السر في كثرة المصابين بهذين المرضين من أبناء الريف الذي لا يتحرز أهله عن هذا الصنيع، وإنى أعتقد أنهم إذا عرفوا أنه مما يغضب الله ويسخط عليهم رسوله، ويستوجب اللعن والطرد من رحمة الله لما فعلوه ولما سكتوا عمن يفعله.

وجاء أيضا في الإرشادات النبوية، التحذير من ترك أوانى الطعام والشراب مكشوفة «أطفئوا المصابيح بالليل إذا رقدتم، وأغلقوا الأبواب، وأوكئوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب» أى غطوا الطعام واربطوا قرب الماء، وذلك حفظا للطعام والشراب من سقوط الحشرات المؤذية التي تولد جراثيم المرض . وهذا كله من باب الوقاية والتحفظ من الأمراض وأسبابها .

وإذا كانت الوقاية ـ كما يقولون ـ خيرا من العلاج، فإن الإسلام ضمن العبادات التي أمر بها، تقربا إلى الله، كثيرا من أنواع الوقاية التي تحفظ الإنسان إذا داوم عليها، وأداها حقها، من التعرض للإصابات الجوية بسبب الأتربة والحرارة. ومن ذلك أمر في الوضوء للصلوات الخمس، بغسل الوجه والأطراف، الأيدى والأرجل، وبمسح الأذنين، كما طلب السواك والمضمضة والاستنشاق حفظا للفم والأنف والأسنان ومن كلامه في السواك : «ما لكم تدخلون علىّ قلحا، استاكوا» يريد تبكيتهم على دخولهم عليه وأسنانهم مصفرة، تنبعث منها الرائحة . وفى السواك أيضا يقول : «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل

صــلاة» . وكلنا يعرف شــدة حرص الأطبــاء وكثرة وصاياهم على تنظيف الأســنان التي تولد قذارتها أنواعا من الأمراض في كثير من الأجهزة .

هذه بعض الإرشادات التي جاء بها الإسلام قرآنا وسنة في المحافظة على الصحة وعلاج الأمراض البدنية .

وقــد أثبــت الطــب صحتها وعظــم نتائجها فــي الوقاية ، وحفظ الصحة وقد جاءت هذه الإرشادات بجانب الإرشادات الأخرى التي رســمها الإســلام لعــلاج القلــوب ووقايتها من أمراضها ، كالشــهوة والغضب والحقد ، وما إليها مما يفسد على الناس مجتمعهم ، وبهذه وتلك إذا ترسّــمها الإنســان ، ســلم فــي قلبه وعقلــه ، وفى صحتــه وبدنه . فتســلم له أداة التفكيــر والنظر فــي معرفة الحق ، وتســلم لــه آلات العمل فــي تنظيم الحيــاة وعمارة الكون ، كما يحــب الله ويرضى ، وبذلك تكتمل له سعادة الدنيا والآخرة .

عـود علـى بــدء

تلخص لنا مما سبق المبادئ الآتية :

أن الإسلام نحى الجنسية والإقليمية، والمذهبية الخاصة ونحوها عن الاعتبارات البشرية عن مكانة الأساس الأول للجماعة الإنسانية، وجعل الأساس في بنائها شيئا واحدا هو الاعتصام بمبدأ الخير العام، والرحمة الواسعة، والعدل المطلق، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ٢، ٣)

هذا المبدأ الذي يدركه الإنسان بفطرته، ويناجيه في خلوته، ويفزع إليه عند مصابه هذا المبدأ الذي تشعر الفطرة بأن نسبة الناس إليه على حد سواء، وأنه لا يرضيه منهم مهما اختلفت طبقاتهم، وتباينت مراكزهم، إلا معرفة الحق والإيمان به، وإلا معرفة الخير وإقراره بين الناس :

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾
(آل عمران: ١٠١)

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٨)

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾
(العصر: ١ – ٣)

وأن الإسلام أوصد على الإنسان في هذه الحياة أبواب التبتل والزهد، والانقطاع عن الدنيا إلى العبادة الفردية، وأباح له التمتع بطيبات المأكل والمشرب والملبس وما إليها:

﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾
(الأعراف: ٣٢)

﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة: ٩٣)

وأن الإسلام طالب الإنسان بالعمل وحذره البطالة والكسل وإراقة ماء الوجه بالسؤال، ولا نكاد نجد آية في القرآن تذكر الإيمان إلا وتعطف عليه عمل الصالحات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾
(البقرة: ٢٧٧)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥)

ولقد طلب العمل والسعي في تحصيل الرزق والمعاش حتى في وقت أداء عبادة الحج :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾ (البقرة : ١٩٨)

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ ﴾ (الحج : ٢٧، ٢٨)

وليست الصالحات التي يحث الله على عملها، ويقرن الإيمان بها، هي خصوص الصلاة والصوم والتسبيح والتهليل، وما إليها من العبادات الشخصية التي لا يتعدى نفعها إلى غير العامل، وإنما المراد بها كل ما يصلح به المرء نفسه، وأسرته وأمته، فهي من الصلاح لا بمعنى «التقوى والتعبد» كما يفهمها كثير من الناس، وإنما هي من الصلاح الذي يقابل الفساد، ومنه :

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ ﴾ (البقرة : ٢٢٠)

ومنه :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ (البقرة : ١٦٠)

ومنه :

﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ (النساء : ٣٥)

ولولا ما دخل على كلمات القرآن العامة من التأويل الخاص لطائفة من الناس، نظرت إلى الحياة بمنظار ضيق، واعتبرت ما أدركته بهذا المنظار مراد الله من الإنسان في الحياة . لولا ذلك لما كنت في حاجة إلى التنبيه عليه، بل لما كنت في حاجة إلى الكتابة في هذا الموضوع رأسا .

وأن الإسلام حينما حث الإنسان على العمل، وحرضه على تحصيل الأموال، ومتع الحياة الطيبة، لم يترك الكون مغلقا أمامه بل قلب له صفحاته بآياته، وكشف له غطاءه وأغراه بما فيه من أسرار، وبما سخره له وأخضعه لسلطانه.

أغراه بأصول الثروات التي يحصل عليها لو عمل لها، أغراه بالثروة الحيوانية والنباتية والمائية والجبلية، أغراه بأن سخر له هذا الكون ليخوض غماره، ويحصل على كنوزه ويظفر بخير هذه الثروات، ولكن أترى الإسلام أغرى

الإِنســان هكذا بالحياة ومتعها، وتركه يولى وجهه شــطرها فقــط، ويحصر فيها تفكيره فيتلهى بهــا عن تقوية الجانب الروحي الذي يربطه في تفكيره وأعماله بمبدأ الخير العام، والرحمة الواسـعة الذي لا يرضيــه إلا الاعتصام، ومراقبته، واستشعار عظمته، وتوخى ما رسم في الحياة؟

وجواب هذا ما رأيته من قبل، وهو أن الإِسلام مع هذا الإِغراء وهــذا الإِعــداد احتاط لخيــر الإِنســان، وقطع عليه مســالك الطغيــان في الانهماك والتكالب علــى الدنيا بما يفوت عليه ســعادة الروح، بالمادية الجشــعة التي تقتل في النفوس روح الشــعور بمكانة التعاون وتبادل المنافع وتغرس فيها الشــح، وتنمى عوامل العداوة والبغضاء وتصد عن ذكر الله وعظمته:

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

(التكاثر: ١ – ٨)

وأن الإِســلام قدر كما هو الواقع أن حصول الإِنســان على خير هذه الحياة بالمبادئ التي رسمها، لا يمكن أن يكون إلا

بإعمال العقل والتفكير فيما سخر له من مواد هذا الكون، فدعاه إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، ليعلم وينتفع، ومن هنا نوه القرآن بفضل العقل، ومكانة العلم، وجعل المحافظة على العقل من الضروريات الدينية الأولى، وحرم تناول ما يفسده أو يضعفه، وحقر في كثير من الآيات هؤلاء الذين أسلموا أنفسهم للأوهام والخرافات، وأهملوا عقولهم، وسلبوا أنفسهم حقها الطبيعي في الفكر والنظر:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

وفى سبيل الاحتفاظ بفائدة العقل، رفع من شأن العلم والعلماء:

﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ (فاطر: ٢٨)

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾

(المجادلة: ١١)

وليس العلماء كما جاء في التأويل الفاسد، هم أهل الفتيا بالمسائل الفقهية في الحل والحرمة فقط وإنما العلماء هم الذين يعلمون أحكام الله وشرائعه على وجهها الصحيح، فيستدلون بما يعلمون على عظمة الخالق في علمه وقدرته وحكمته:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ (سبأ : ٦)

وفى سبيل الاحتفاظ بفائدة العقل ذم التقليد، وتوارث العقائد والآراء عن الآباء والأجداد دون نظر واستدلال.

قدر الإسلام ـ كما هو الواقع ـ أن الإنسان لا يمكن أن ينتفع بهذه المبادئ ويلبى في حياته نداءها، إلا إذا تحصن بالصحة، فأمر بالوقاية والعلاج حتى يسلم جسمه فيسلم عقله، وتقوى جوارحه.

بهذه المبادئ التي مصدرها القرآن، رسم الإسلام خطوط الحياة الفاضلة للإنسان الذي يتكون المجتمع المثالي من أفراده.

فعلى القائمين بشئون التربية والتعليم أن يسلكوا إليها سبلها، وأن يصوغوا على مقتضاها أبناءنا، الذين هم عدتنا في بناء المجتمع الذي عليه يعملون، وله يترقبون.

التضامن الاجتماعي في نظر الإسلام

لم تكن أفراد الإِنسان وحدات يستقل بعضها عن بعض، وإنما هي بطبيعة ما خلقت عليه، وما تحتاجه في الحياة وحدات تتبادل المنافع، وتتعاون على المصالح، وبهذا التعاون الضروري للحياة يتحقق المجتمع الإِنساني .

والإِسلام لم يقف فيما يحقق المجتمع الإِنساني عند هذا الحد الطبيعي الذي كثيرا ما تطغى عليه العوامل النفسية والشخصية، فتخرجه عن حد الاعتدال اللازم للهدوء والسعادة، والأمن والاستقرار، ولكنه شد أزر الطبيعة الاجتماعية بما يقويها ويقيمها من الانحراف والانحلال.

فربط بين أفراد الإِنسان برباط قلبي يوحد بينهم في الاتجاه والهدف، ويجعل منهم وحدة قوية متماسكة، يأخذ بعضها برقاب بعض، سُداها المحبة ولُحْمَتُهَا الصالح العام، وهدفها السعادة في الدنيا والآخرة .

وهذا الرباط هو رباط الإِيمان والعقيدة المتصلة بمبدأ الخير والرحمة وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد اتخذ الإِسلام عنوانا لهذا الرباط (الأخوة الدينية) بين المسلمين، وهي أصدق تعبير عن الحقوق والواجبات

الاجتماعيــة، وهي أقوى ما يبعث في النفوس معاني التراحم والتعاطف والتعاون، وتبادل الشعور والإحساس، مما يحقق للمجتمع المثالية التي تخلصه للخير وتبعد به عن الشر.

قرر الإِســلام هذه الأخوة بين المسلمين، وجاء فيها قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: ١٠)

وجاء فيها قول الرســول ﷺ: «المســلم أخو المســلم لا يظلمــه ولا يخذله ولا يكذبه ـ بحســب امرئ من الشــر أن يحقر أخاه المســلم، كل المســلم على المســلم حرام، دمه وماله وعرضه».

قرر الإِسلام الأخوة بين المسلمين، على أنها شأن يتحقق بمجرد الإِيمان والاشــتراك في العقيدة، ويستتبع جميع آثار الأخوة من حقوق تعرف للمســلم، وواجبــات تعرف عليه، وقــد سَــمَّى الإِســلام عنوانا لهــذا الربــاط الأخــوة الدينية عــن الأخوة النســبية، فيهــا اصطلح المتخاصمــون وائتلف المتفرقون، ونســيت العــداوات، وتبــودل العفو والصفح، وأصبح المرء بعد تفيئه لظلها يجلس آمنا مطمئنا في ملأ أو

خلوة مع قاتل أبيه أو أخيه لا يخشى انتقاما ولا يتوقع أذى :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (آل عمران : ١٠٣)

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة : ١١)

وبها نسى المسلم بأخيه المسلم قبيلته، وخرج على عشيرته، وخاصم أباه، وقاتل أخاه :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة : ٢٢)

وبها فقدت الأخوة النسبية آثارها، من ولاية وتوارث إذا تجردت عن الأخوة الدينية وبها صار المجتمع الإسلامي بالعقيدة والإيمان ذا جهاز واحد، يتقاسم الفرح والحزن واللذة والألم، والسعادة والشقاء، والرحمة والعطف، والإرشاد والمعونة، مهما تناءت الديار واختلفت الأجناس، وتباينت اللغات، شعار واحد «المؤمن للمؤمن كالبنيان

يشد بعضه بعضا » ودعاء واحد :

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (الحشر : ١٠)

وقد كان من مقتضيات هذه الأخوة التضامن الاجتماعي بين المسلمين، والتضامن الاجتماعي : هو إيمان الأفراد بمسئولية بعضهم عن بعض هو إيمانهم بأن كل واحد منهم، حامل لتبعات أخيه ومحمول بتبعاته على أخيه فإذا ما أحسن، كان إحساسه لنفسه ولأخيه، وإذا ما أساء، كانت إساءته على نفسه وعلى أخيه

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ (العنكبوت : ١٣)

والتضامن الاجتماعي أول عناصر الحياة الطيبة للمجتمعات، يتوقف عليه حياتها، وبه تكون عزيزة كريمة، متمتعة بهيبتها قائمة بواجبها، ولهذا التضامن شعبتان : تضامن أدبي، وتضامن مادي، والتضامن الأدبي تحققه قوتان . قوة تعرف الخير والفضيلة وتدعو إليهما بصدق وإخلاص، وقوة تستمع وتمتثل وتتقبل بقلوب مطمئنة، وصدور منشرحة، وألسنة شاكرة، وجوارح عاملة،

وبتفاعل القوتين تقوى روح التضامن، ويقف الجميع حول مركز واحد يوحد الاتجاه، ويهيمن على المصالح.

وفى قوة الدعوة، يقول الله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران : ١١٠)

ويقول :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران : ١٠٤)

ويقول :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

(التوبة : ١٢٢)

وفى قوة الاستماع والاستجابة يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُم

صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ (النساء: ٦٦ – ٦٨)

ويقول: ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (الزمر: ١٧ – ١٨)

وإذا ما عدمت قوة الدعوة في المجتمع، وسلك الأفراد مسلك الشخصية الكريهة والمصالح الخاصة المفسدة وانحرفوا في الدعوة عن الخير والصالح العام وتحسسوا شهوتهم أو شهوة الناس، تفككت روابط المجتمع واندفع إلى تلبية الأهواء، وتعرض للهلاك والدمار، وفى ذلك يقول الله :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨ – ٧٩)

ويقول:

﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ (هود: ١١٦)

وكذلك إذا عدمت قوة الاستماع، وزعم كل إنسان لنفسه الكمـال، وأنه لا ينبغي أن يوجه إليه نصح ولا إرشـاد، وفى هذا يقول الله ﷻ :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (البقرة: ٢٠٦)

ويقـول: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾

(النساء: ٦١)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المنافقون: ٥)

وإذا بحثنـا عـن عـدم قوة الإرشـاد في المجتمـع أو عدم قيامها بواجبها على الوجـه المحقق للخير، لوجدناه يرجع إلى عدم الشعور بالمسـئولية الاجتماعية الملقاة على عاتق الأفـراد بالنسـبة للمجتمـع، أو الجهل بما يجـب أن تكون عليـه الدعوة والإرشـاد من الحكمة والموعظة الحسـنة، أو فقـدان الشـجاعة الإيمانية في مجابهة النـاس بالحق، وهذه الثلاثة: عدم الشعور بالمسئولية، والجهل بطريقة الدعوة، وفقدان الشجاعة، من أقوى عوامل الفتك بالمجتمعات.

أما السبب في عدم قوة الاستماع فهو شيء واحد هو الغرور بالنفس، والاطمئنان إليهـا فيما تراه ومن هنا، ينصرف الناس إلى الفســاد وهم يعتقدون أنه صلاح، وإلى الشر وهم يعتقدون أنــه خير وإلى الباطل وهم يعتقدون أنه حق، وإلى الخيانة وهم يعتقدون أنها أمانة وإلــى الغش والخداع، وهم يعتقدون أنهما إخلاص وهكذا، تنقلب الفضائل بالغرور إلى رذائل والمقويات إلى مضعفات، فينتاب المجتمع الضعف والانحلال.

هذا هو الوضع الإسلامي في علاقة الأفراد بالمجتمع فيما يختص بالمسئولية الأدبية وقد آمن به المسلمون الأولون.

فأخلصــوا في الدعــوة، وأخلصوا في الاســتماع، وبذلك استقامت شئونهم وتقدمت حياتهم وإذا كان هذا الوضع من ســنن الاجتماع. وقدره الإســلام ودعا إليه، فإن مجتمعنا لا يعود إليه مجده إلا إذا طهر نفسه من الذاتية والغرور، وعاد إلى سنة الأولين فدعا وأخلص واستمع واتبع:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٤)

الأموال في نظر الإسلام

قلنا في الحديث السابق، إن الإسلام لم يقف في تكوين المجتمع عندما تقضى به طبيعة الأفراد من حاجة بعضهم إلى بعض في ضرورات الحياة ولوازمها المتعددة المتباينة والتى لا يستطيع الفرد الواحد أن يحققها لنفسه، وإنما ربط بينهم فوق ذلك برباط العقيدة والإيمان الموحد لقلوبهم في الاتجاه والشعور والإحساس، وجعل الأخوة الدينية عنوانا لذلك الترابط ليكون مبدأ التعاون نابعا من القلب الذي هو محل العقيدة والإيمان، فيكون له من القوة والأثر ما لها فيثمر ثمرته ويحقق غايته.

إن أقرب لوازم الأخوة التضامن الاجتماعي، فهو أول ما توحي به، وأول ما تقتضيه، ولهذا التضامن شعبتان : شعبة أدبية أساسها من أحد الجانبين، التوجيه إلى الخير والنصح والإرشاد، والإخلاص في الرأى والمشورة، ومن الجانب الآخر، الاستماع والتقبل والامتثال وقد سقنا شواهد ذلك كله من القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

أما الشعبة الثانية للتضامن فهى الشعبة المادية، وأساسها سد حاجة المعوزين وتفريج كرب المكروبين، والمعونة في تحقيق المصالح العامة التي تنهض بحياة الجماعة، ويعم خيرها الأفراد على حد سواء.

وقد رأيت تمهيدا لمنهج القرآن في التضامن المادي أن أقدم بهذا الحديث كلمة وجيزة عن قيمة المال ووضعه في نظر الإسلام وذلك أن المال هو الوسيلة الوحيدة والأداة الفعالة للتضامن المادي، وهو أقوى العناصر التي لا بد منها في قيام الحياة العملية.

ليس من ريب في أن كل ما تتوقف عليه الحياة، في أصلها وكمالها، وسعادتها وعزها، من علم وصحة وقوة واتساع وعمران وسلطان لا سبيل إليه إلا بالمال وقد نظر القرآن الكريم إلى الأموال هذه النظرة الواقعية، فوصفها بأنها زينة الحياة، وسوى في ذلك بينها وبين الأبناء، ووصفها بأنها قوام للناس وقوام الشيء ما به يحفظ ويستقيم، وهي كما نرى قوام المعاش والمصالح الخاصة والعامة، ولما كان الإسلام دينا عمليا ينظم بأحكامه ـ على أساس من الواقع ـ مقتضيات الحياة ويزاوج في الوقت نفسه بين مطالب الروح والجسم بميزان العدل والاستقامة، وقد رسم للروح طريق سعادتها، كان من الضرورى أن يرسم أيضا للمادة طريق سعادتها، ويأمر بتحصيل ما فيه خيرها ونفعها، ومن هنا أمر بتحصيل الأموال من طرق، فيها الخير للناس، فيها النشاط والعمل، فيها عمارة الكون، والتقلب في الأرض، فيها الاختلاط والتعارف والتعاون والمبادلة،

أمر بتحصيلها عن طريق التجارة وبالرحلة اليمنية والشامية اللتين يسرهما الله لقريش في تجارتها يمن عليهم ويذكرهم بفضله ونعمته.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ
٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن
جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ (قريش: ١ – ٤)

وأمر بتحصيلها عن طريق الزراعة التي بها حياة الأرض واستثمارها، وفى لفت الأنظار إلى نعمة الله بإعداد الأرض للزراعة يقول القرآن الكريم:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا
ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا
٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾
(عبس: ٢٤ – ٣٢)

وأمر بتحصيلها عن طريق الصناعة، والصناعة أقوى العمد التي تقوم عليها الحضارات، وفى القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى جملة من الصناعات التي لا بد منها في الحياة، فيه الإشارة إلى صناعات الحديد:

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾
(الحديد : ٢٥)

والإشارة إلى صناعة الملابس :

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾

(الأعراف : ٢٦)

وإلى صناعة القصور والمبانى :

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ **(النمل : ٤٤)**

وهكـذا يجد المتتبع لإيحاءات القـرآن كثيرا من التنويه بشأن الصناعات على اختلاف أنواعها .

أمـر القرآن بتحصيـل الأموال عـن هذه الطـرق الثلاثة ، وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله ، وقد بلغت عنايته بالأموال أن طلـب السـعى فـي تحصيلهـا بمجـرد الفـراغ مـن أداء العبادة الأسـبوعية المفروضة ، وأنه لم يأمر بالانصراف عن تحصيلها إلا لخصوص هذه العبادة فهو يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ

﴿ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾ (الجمعة : ٩)

ثم يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة : ١٠)

ويقول في تحصيلها على وجه عام :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥)

هذا موقف القرآن بالنسبة للأموال وتحصيلها، وله موقف آخر بالنسبة إلى الانتفاع بها والمحافظة عليها، قرره بالنهى عن الإسراف فيها، وبالنهى عن الضن بها، وجعل الاعتدال في صرفها من صفات المقربين عباد الرحمن :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ (الفرقان : ٦٧)

وجعل الإسراف فيها والضن بها عن الحقوق والواجبات مما يوقع في الحسرة والغرامة :

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ (الإسراء : ٢٩)

والقرآن كما طلب السعي في تحصيل الأموال، وطلب الاعتدال في صرفها، نهى عن تحصيلها بالطرق التي لا خير للناس فيها، وفيها الشر والفساد، نهى عن تحصيلها بطريق الربا الذي يؤخذ استغلالا لحاجة الضعيف المحتاج، وبطريق السرقة والانتهاب والتسول التي تزعزع الأمن والاستقرار، وبطريق التجارة فيما يفسد العقل والصحة كالخمر والخنزير وبطريق الميسر والرقص، وبيع الأعراض، من كل ما يفسد الأخلاق، ويعبث بالإنسانية، وبطريق الرشوة التي تذهب بالحقوق والكفايات، وفى هذا وأمثاله يقول القرآن الكريم :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٨)

وعناية الله بالأموال، شرعة قديمة لم يخص بها جيلا دون جيل، ولا رسالة دون رسالة، وقد قص علينا القرآن أن الله عاقب بعض خلقه الذين عتوا عن أمره فيها، وأكلوا أموال الناس بالباطل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ
وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾ (النساء: ١٦٠ - ١٦١)

أما بعد :

فهذا هو الوضع القرآنى بالنسبة للأموال ، في قيمتها وطرق تحصيلها وأسلوب المحافظة عليها ، فهل لجماعة المسلمين ـ وكتاب الله قائم بينهم يؤمنون به ويقدسونه ـ أن يتبعوا ما أنزل الله فيه بالنسبة لتحصيل الأموال والمحافظة عليها ، فتسلم النفوس من الجشع ، وتزكوا بالأخلاق الفاضلة ، وتطيب لهم الحياة ! أرجو أن يكون ذلك .

التضامن المادي في نظر الإسلام
(١)

الإِسلام حينما طلب تحصيل الأموال بالزراعة والصناعة والتجارة نظر إلى أن حاجة المجتمع المادية تتوقف عليها كلها فإنه كما يحتاج إلى الزراعة في الحصول على المواد الغذائية التي تنبتها الأرض، يحتاج إلى الصناعات المختلفة في شئونه المتعددة : في ملابسه ومساكنه، في آلات الزراعة وتنظيم الطرق، في حفر الأنهار ومد السكك الحديد، في حفظ الكيان والدولة، وما إلى ذلك مما لا سبيل إليه إلا بالصناعات.

ويحتاج أيضا إلى تبادل الأعيان والمواد الغذائية والمصنوعات مع الأقاليم التي ليست فيها زراعة ولا صناعة ولا تسعد أمة لا تسد حاجتها بنفسها، وإذن لا بد من الاحتفاظ بالزراعة والتجارة والصناعة.

ومن هنا قرر علماء الإِسلام أن كل ما لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، فتعلمه ووجوده من فروض الكفاية قالوا : ومن ذلك أصول الصناعات كالفلاحة والحياكة، وما إليها مما هو ضرورى، أو كالضرورى في المعاملات ويسر الحياة، ودفع الحرج عن الناس، ومعنى أنه من فروض الكفاية، أنه

إذا لم يتحقق في الأمة، أثمت الأمة كلها، وأن الإِثم لا يرتفع عنها إلا إذا قامت كل طائفة بنوع من هذه الأنواع، وليس من ريب في أن أساس هذه الفرضية هو العمل على تحقيق المبدأ الإِسلامي الذي يوجبه الإِسلام على أهله، وهو مبدأ استقلال الجماعة الإِسلامية في تحقيق ما تحتاج إليه من الضروريات والحاجات، فيما بينها، وبيد أبنائها دون أن تمد يدها إلى غيرها من الأمم.

وبذلك لا تجد الأمم الأخرى ذات الصناعات والتجارات، سبيلا إلى التدخل في شئونها، فتظل محتفظة بكيانها وعزتها ونظمها وتقاليدها، وخيرات بلادها. وكثيرا ما اتخذ هذا التدخل سبيلا لاشتراك الدول الأجنبية في إدارة البلاد وتنظيمها واستعمارها استغلالاً لحاجتها في الصناعات والتجارات.

ولا ريب أن هذه الطرق الثلاثة: الزراعة والتجارة والصناعة، وهي الطرق الطبيعية لتحصيل الأموال عمد الاقتصاد القومى لكل أمة تريد أن تحيا حياة استقلالية، رشيدة عزيزة. ومن الضرورى عملاً على تركيزها في البلاد، حتمية العمل على تنسيقها تنسيقا يحقق للأمة هدفها الذي يوجبه الإِسلام عليها، والذى يجب أن تحصل عليه وتحتفظ

به وتنميه، صونا لكيانها واستقلالها في سلطانها وإدارتها وقد أرشدنا تاريخ الاستعمار أن أهم أسبابه وأول نافذة ينبعث منها إلى الأمة تياره الكريه، وريحه الثقيل، هو نقص الأجهزة التي تحقق للأمة كفايتها من هذه العمد الثلاثة.

وإذا كان من قضايا العقل والدين، أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وكانت عزة الجماعة الإسلامية، أول ما يوجبه الإسلام على أهله، وكانت متوقفة على هذه العمد الثلاثة، كانت هذه العمد الثلاثة واجبة وكان تنسيقها على الوجه الذي يحقق خيرها واجبا.

ومن هنا كان على ولي الأمر في الجماعة الإسلامية المهيمن على مصالحها وتوجيهها، أن يعمل جهده بما يحقق للأمة الانتفاع بها كلها. وأن يعمل على تنسيقها بحيث لا يترك الأموال تتكدس في تركيز عنصر واحد منها، دون سواه، فلا عليه أن يحول بعضا من الأراضى الزراعية إلى رءوس أموال تجارية أو شركات صناعية، على حسب حاجة البلاد المبنية على تقدير مصالحها، ويتم بذلك تنسيقها على الوجه الذي يجعلها غنية بنفسها عن غيرها.

فلا يجد الأجنبى بابا للتدخل في شئونها إلا بقدر ما يحتاج هو إليها من طرق التبادل العام الذي يقع بين الناس بعضهم مع بعض وهذا نوع من التنظيم فيما ينفع البلاد،

ويقيهـا شـر تدخل الأجنبـى بما يركز فيهـا قدمه، ويكون سيدا عليها، ومستعمرا لها.

وليس هذا التنسـيق من باب تقييد لحرية الملكية وإنما هـو توجيـه تسـتدعيه حاجة البـلاد، ويمكنها مـن حريتها الحقة الكاملة.

وهـو بهذه الاعتبارات واجب على ولـي الأمر حتى إذا ما قصـر فيـه أو أهمله كان آثمـا، وكانت أمته معـه آثمة، وإذا ما قام به ووفر به مصالح البلاد واسـتقلالها، وعاونته الأمة عليـه. كان سـائرا بها في طريق الخير والسـعادة، وكانت معه في مكانة الأمن والاطمئنان.

ونظـرا إلى أن فائدة المال تعم المجتمع كله، وتقضى به حاجتـه على النحـو الذي ذكرنا، أضافه الله تنويها بشـأنه، تـارة إلى نفسـه وجعل المالكيـن له مسـتخلفين في حفظه وتنميته وإنفاقه بما رسم لهم في ذلك.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾ (الحديد: ٧)

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ (النور: ٣٣)

وأضافه أخـرى إلى الجماعة، وجعله كلـه بتلك الإضافة ملكا لها:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (البقرة: ١٨٨)

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾
(النساء: ٥)

وأرشد بذلك إلى أن الاعتداء عليها أو التصرف السيئ فيها، هو اعتداء أو تصرف سيئ واقع على الجميع.

وذلك نتيجة ضرورية لما قرره الإسلام من أنه أداة لمصلحة المجتمع كله، به تحيا الأرض وبه توجد الصناعة وبه تكون التجارة، ثم به يساهم أصحابه في سد حاجة المحتاجين وتأسيس المشروعات العامة النافعة إن لم يكن بعاطفة التعاون والتراحم، فبحكم الفرض الذي أوجبه الله في أموال الأغنياء للفقراء وفى سبيل الله، وبحكم الضرائب التي يضعها ولي الأمر حسب تقدير ما تحتاجه البلاد من مشروعات الإصلاح والتقدم والصيانة.

وقد عنى القرآن عناية كاملة بالحث على البذل للفقراء والمساكين، وفى سبيل الله وكلمة (سبيل الله) من الكلمات الفذة التي جاء بها القرآن، وهي بذاتها تملأ القلب روعة وجلالا وتملأ الكون خيرًا وصلاحًا، ولا يخرج عن معناها نوع ما من أنواع البر، خاصة وعامة.

-٢-

وإذا كان المـال مـال الله، وكان الناس جميعـا عباد الله، وكانت الحياة التي يعملـون فيها ويعمرونها بمال الله، هي لله، كان من الضرورى أن يكون المال ـ وإن ربط باسم شخص معيـن ـ لجميـع عباد الله، يحافظ عليـه الجميع، وينتفع به الجميع، وقد أرشد إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

(البقرة : ٢٩)

ومن هنا أضاف القرآن الأموال إلى الجماعة وجعلها قواما لمعاشهم.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (البقرة : ١٨٨)

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾

(النساء : ٥)

وتحقيقـا لانتفـاع الجميـع بهـا، وتطهيـرا للنفوس من بواعث الأثرة فيها، حارب الإسـلام خلق الشـح الذي يمنع مـن البذل والإنفاق، كما حارب السـفه الذي يودي بالمال في غير وجـوه النفع وإقامة المصالح، ففى الشـح يقول الله سبحانه :

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾
(الحشر : ٩)

وفى البخل وهو وليد الشح يقول :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ ﴾ (آل عمران : ١٨٠)

ويقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ ﴾ (النساء : ٣٧)

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾
(التوبة : ٣٤ - ٣٥)

ثم أرشد إلى أن الضن بالأموال عن أداء الواجبات ، وإقامة المصالح إلقاء بالنفس في التهلكة :

﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥)

ويقول الرسول ﷺ في التحذير من الشح: «إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا» ويقول: «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم»، ولست بواجد أقوى من هذا التعبير في تصوير الخطر الاجتماعي الذي ينبعث من الشح، ولا ريب أنه من أكبر الآفات التي تغرق المجتمعات وتقضى على حياة الأمم، وصلاح العمران.

وكما وقف القرآن، وبجانبه أقوال الرسول من الشح بالأموال هذا الموقف، وقف أيضا الموقف عينه، من التبذير فيها، وإضاعتها فيما لا يعود بخير على الأمة:

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٧)

وبعد أن يفرد القرآن كلا من الضن والتبذير بما يصور سوء عاقبته، جمعهما في إطار واحد، وأرشد إلى الطريق

السوى الذي يسلكه أرباب الأموال في أموالهم، فيحفظ عليهم حياتهم، ويمكنهم من إقامتها على عمد قوية ثابتة

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩)

وكما اتجه الإسلام بهذه الإرشادات إلى الأفراد تحذيرا لهم من آفتى الشح والتبذير، يجعل من حق ولي الأمر القائم على المصالح الجماعية ـ بالنسبة لمن لم يخضع لهذه الإرشادات ـ أن يأخذ منهم بطريق القهر والقوة ما وضعه الله في أموالهم من حقوق الأفراد والجماعة.

وقد وصل الأمر في تطبيق هذا المبدأ أن قاتل الخليفة الأول جماعة الذين تكتلوا في منع الزكاة، حتى خضعوا فيها لأمر الله وبه استقام الأمر وتركزت عناصر الدولة.

وكذلك جعل من حقه أن يحجر على السفهاء المبذرين والولاية على أموال الصغار، ومن إليهم ممن لا يهتدون إلى وجوه التصرفات النافعة

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟

﴿ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ (النساء: ٥، ٦)

وقرر كذلك أن الترف منبع شر يملأ القلوب حقدا وضغينة ويقضي على حياة الأمن والاستقرار، ويصل بأصحابه إلى جحود الحق وإنكار الشرائع، ويغرس في نفوسهم الأثرة وفتنة الطبقات وما وقف في وجه الرسالات الإلهية سوى المترفين الذين رأوا أن في تلك الرسالات ما ينزل بهم إلى مستوى الفقراء والضعفاء، أو يصعد بهؤلاء إلى مستواهم. نرى ذلك في أول الرسالات، ونراه في آخرها.

فها هم أولاء المترفون في زمن نوح عليه السلام يعيبون عليه أن كان أتباعه ـ كما يقولون ـ من الأراذل

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا ﴾

(هود: ٢٧)

وها هم أولاء المترفون في زمن محمد ﷺ يقفون من بلال وإخوانه هذا الموقف نفسه، ويكون جواب نوح هو جواب محمد عليهما السلام، فنوح يقول :

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ
أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود: ٢٩ – ٣٠)

ومحمد يرشده ربه إلى نفس الجواب :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم
مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٢)

وفى شأن المترفين ووقفتهم في وجه الحق يقول سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ
أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى
تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ
ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ
رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقْتُم
مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

(سبأ: ٣٤ – ٣٩)

وفى سوء العاقبة التي تنزل بالمترفين في الدنيا يقول :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ (١١) فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا
تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ
(١٣) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ
حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ الأنبياء : (١١ – ١٥)

وفى سوء المصير الذي أعد الله لهم في الآخرة يقول :

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢)
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُتْرَفِينَ ﴾ (الواقعة : ٤١ – ٤٥)

بهـذا وغيره وهـو كثير في القـرآن ، حارب الإسـلام في النفوس خلال الشـح والإسـراف والترف وعمل على تطهير الجماعة منها ، وأعـد النفوس للبذل والعطاء في القيام بحق الله وحـق النـاس وكان له في ذلك من أسـاليب الترغيب في البـذل والترهيـب مـن الضـن ما يمـلأ قلب المؤمـن بمبدأ التضحية ، وأنها سبيل الله في الحياة الطيبة التي تكفل للفرد والجماعة سعادة الدنيا والآخرة .

أساليب القرآن في الدعوة إلى الإنفاق

رسـم الإِسـلام طريق الحياة القويمة للمجتمـع المثالي الفاضـل، إذ أقامـه على مبـدأ الضمان الاجتماعـي الذي به تحيا الأمة ويقوى المجتمع.

وفى سبيل ذلك المبدأ استل من نفوس المالكين، أرباب الأموال خلال الشح والإِسـراف والترف، وكان للقرآن بعد ذلك من أسـاليب الترغيب فـي البذل والترهيب من البخل، وإهمال حق الفقيـر والمجتمع، ما يملأ قلب المؤمن بمبدأ التضحيـة، وأنها سـبيل الله فـي بناء المجتمـع، بناء يكفل للإِنسـانية سـعادة الأولى والآخرة. وأن أول مـا يطالعنا من تلك الأسـاليب في القرآن الكريم، هو أننا لا نكاد نجد فيه ذكـرا للإِيمان بالله، إلا مقرونا بالإِنفاق في سـبيله، وإطعام البائـس الفقير فسـورة البقرة تبـدأ ببيان أوصـاف المتقين الذين ينتفعون بالقرآن وهديه ويكون منها :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾

(البقرة: ٣)

ثم تعرض لأصول البر الذي يطلبه الله من العباد، ويكون منها بعد الإِيمان

﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة : ١٧٧)

ويجعل ذلك من دلائل الصدق في الإيمان والتقوى . وسورة الأنفال تذكر مقومات الإيمان ويكون منها بعد وجل القلوب من ذكر الله وزيادة الإيمان بآياته :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الأنفال : ٣)

وتقول :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٤)

ونرى سورتي النساء والحجرات تذكران الإيمان، ولا تذكران معه سوى الإنفاق في سبيل الله :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (النساء : ٣٩)

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات : ١٥)

هذا أسلوب يضع الإنفاق في سبيل الله في مستوى الإيمان وإذا قلبنا صفحات القرآن لم نجده أطلق عنوان العقبة التي تحول بين الإنسان وسعادته على شيء سوى إطعام الفقير والمسكين، كما أنه لم يجعل عدم التحريض على شيء من تكاليفه علامة على التكذيب بيوم البعث والجزاء، وعلامة على عدم الصدق في الصلاة وإقامتها، سوى إطعام المسكين:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾
أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا
ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ (البلد: ١١ – ١٨)

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى
يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ
لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ
يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (الماعون: ١ – ٧)

وهذا أسلوب يضع الإنفاق في سبيل الله، وإطعام الفقير المحتاج، موضع العقبة والحاجز الذي لا بد من اقتحامه ليصل الإنسان إلى سعادته، إن لم يكن بنفسه فبحض القادرين عليه وإرشادهم إليه.

وقد قص الله علينا بعد ذلك أن المجرمين سيسجلون على أنفسهم في الجواب حين يسألون يوم الدين.

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ **(المدثر : ٤٢)**

سيسجلون مع التكذيب بيوم الدين، والخوض في الباطل إهمال حق الفقير والمسكين :

﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

(المدثر : ٤٣ - ٤٦)

هذه بعض أساليب القرآن في مكانة الإنفاق في سبيل الله. وفى الترهيب من البخل بحق الفقير والمسكين. أما أساليب الترغيب في الإنفاق، فحسبنا أن نقرأ فيها الآيات الواردة في سورة البقرة :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ ﴾ **(البقرة : ٢٤٥)**

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(البقرة: ٢٦١، ٢٦٢)

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٥)

أما بعد، فهذه مكانة الإنفاق في سبيل الله، وهذه عدة الله الصادقة لمن يجود بماله في سبيله وهما كما نرى مكانة وعدة لم يحظ بهما شيء من التكاليف الإلهية، سوى الإنفاق فالصلاة على مكانتها في الدين، وعلى أنها الركن الذي يلي الإيمان، لا تقع عند الله موقعها إلا إذا دفعت بصاحبها إلى القيام بحق الفقير والمسكين وكذلك الصوم والحج، لا نجد لهما في ترغيب القرآن وترهيبه مثل ما وجدناه للإنفاق في سبيل الله.

فهل لنا أن نقرر أن الإسلام لا يقيم وزنا لشيء من تكاليفه إذا لم تغرس في قلب المسلم عاطفة الرحمة، مبعث الإنفاق والبذل والعطاء. نعم هذا هو ما أعتقده وهو ما يدل عليه القرآن الكريم.

التسول في نظر الإسلام

إن الإسلام مع شدة حرصه على تقرير مبدأ الإنفاق في سبيل الله، لم يرد منه مجرد الإنفاق والبذل بإخراج الغنى بعض ماله لغيره أيا كان ذلك الغير، وإنما أراد بالإنفاق الذي قرره على أغنياء المسلمين ما يحقق الضمان الاجتماعي بين الأغنياء وأرباب الحقوق عليهم، وذوى الفقر والحاجة الذين لم يكن لديهم قوة عملية يدفعون بها حاجتهم، وينقذون أنفسهم من مخالب الفقر المذلة للنفوس، المضيعة للكرامات.

ومن هنا رسم للإنفاق دوائره التي ينبغي أن يتجه إليها به. رسم دائرة الأهل والأقارب :

﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾

(البقرة : ١٧٧)

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ (الأنفال : ٧٥)

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ (الإسراء : ٢٦)

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (النساء : ٣٦)

ورسم دائرة الفقراء والمساكين، الذين لا يجدون ولا يقدرون على أن يعملوا

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون: ٣)

﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ ﴾ (البقرة: ١٧٧)

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ (المدثر: ٤٤)

ورسم بكلمة

﴿ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٦٠)

دائرة الإنفاق في المصالح العامة والمشروعات الجماعية، وفى أوائلها المصانع الحربية، والمستشفيات العلاجية، والمعاهد العلمية، وما إلى ذلك مما يحقق للمجتمع حاجته في حفظ كيانه وحفظ صحته، وعقله وثقافته.

ولا يكاد يشتبه أحد في تحديد دائرة أهله وأقاربه، ولا في تحديد دائرة المشروعات النافعة، فهما دائرتان واضحتان لا لبس فيهما ولا خفاء.

نعم يقع الاشتباه عند كثير من الناس في دائرة الفقر والمسكنة هذه الدائرة التي يتزيا بزى أهلها الحقيقيين كثير من المحترفين، سولت لهم نفوسهم البطالة، فمدوا أيديهم بالسؤال، واتخذوا مشروعية الصدقة في الإسلام سبيلًا للجمع عن طريق التمسكن وللظهور بمظهر الفقراء

المستحقين وبذلك استغلوا بماء وجوههم عاطفة الناس !.

هؤلاء ليسوا في واقعهم إلا أرباب نهب وسلب عن طريق استخدام الغش والخديعة التي تصرف الناس عن حقيقة أمرهم، وليسوا إلا عناصر بطالة وهدما لكرامة الجماعة التي يجب أن تعيش وحداتها على أساس من العزة والتعفف والرفعة.

يطالب الله الإنسان القادر على العمل أن يعمل تحصيلًا لرزقه وحفظًا لماء وجهه، ويشدد عليه في ذلك كله، ويضع السعي أمامه في مستوى العبادة، فيتحلل الإنسان من تلك الأوامر، وينزع نفسه من معاني الكرامة نزعًا، ويتخذ التسول صنعة، يتنقل بها في الطرق والمقاهي، ومركبات الترام، والميادين العامة، منها يتعيش، وبها للمال يجمع: يقف للمارة بالمرصاد، يسد عليهم طريقهم ويعترضهم في سيرهم، مرتلًا لهم دعوات، فإذا لم يعط بها، قلبها لعنات

﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨)

إن هذا الصنف كثر في هذه الأيام، وتفنن في مظاهر العجز ودواعي السؤال وكان منهم من يتعارج، ومن يتعامى،

ومن يزعم أنه خرج من مستشفى القصر وليس معه أجرة القطار، ولا أجرة المأوى، ولا ثمن الخبز هؤلاء كذبة فجرة، فقدوا ماء الوجه، وحرموا فضيلة الحياء، واستطابوا هذه الوسيلة الوضيعة لجمع المال بغير كد وعمل.

المسكين الذي يستحق العطف، ويجب له البذل، هو من قعد به المرض عن السعى والعمل، وهو من سعى إلى عمل فسدت في وجهه السبل، هذا هو المسكين، ومع هذا فشأنه أن تدل عليه حالته، فيعطف عليه أهل الخير والسخاء

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة: ٢٧٣)

«ليس المسكين من ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»، «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس بوجهه مزعة لحم».

إن تنظيم الإنفاق في هذه الدائرة، دائرة الفقر والمسكنة من أوجب الواجبات على المصلحين والقائمين بشئون

المجتمـع، عليهم أن يتعرفـوا المحتاجين حقيقة، وبخاصة الأسـر التي أخنى عليها الدهـر، وصارت بعد العزة إلى ذلة، وبعد الغنى واليسار إلى الحاجة والمسكنة، ويمنعهم الحياء عن الظهور بمظهر السـائلين أو المتسولين، وقد يكون من أقـرب الطـرق لمعرفة هـؤلاء، تقسـيم المدن إلـى مناطق، يكلـف أمناء كل حى من أحيائها بمعرفة المحتاجين للعمل أو المعونـة فيهـا؛ وبما يجمعـون من أهل الخير واليسـار؛ يسـدون حاجة المحتاج بنفقـة يدفعونها أو عمل يهيئونه له ويجرى هذا التنظيم في كل قرية.

استغلال حاجة المحتاج

فى نظر الإسلام

اتضح مما أسلفنا أن الإسلام يعتمد في بناء المجتمع على جملة من المبادئ، أهمها في الجانب المادي من الحياة، مطالبة كل فرد من أفراد المجتمع بالعمل على تحصيل رزقه الذي يكفل حاجته ويوفر له حياة نفسية هادئة. وأشعر الإسلام بجانب هذا الأغنياء الذين آتاهم الله من ماله أن هذا المال وإن كان معقودا في ملكيته بأسمائهم إلا أن حق الانتفاع به مشترك بينهم وبين إخوانهم الفقراء الذين يكونون المجتمع معهم، وتكون راحته من راحتهم واضطرابه من اضطرابهم، مشترك بينهم وبين المصالح العامة التي تحتاج إليها الجماعة في راحتها واستقرارها وإدارة شئونها، وبعد هذا أوجب الإسلام مد يد المعونة إلى الفقراء والمساكين وأرباب الحاجات، إما بالبذل أو بتهيئة العمل. كما أوجب مدها إلى أولياء الأمر بما يمكنهم من إقامة المصالح التي تحقق خير الجماعة.

ووضعا للمعونة في موضعها، ووقوفا بها عند الحد الذي يرفع عن كاهل المحتاجين عبء الضرورات المقومة، والحاجات الميسرة والمصالح النافعة، لهذا حذر الإسلام

كل التحذير من الإِسـراف، وإنفـاق الأموال حيث لا ضرورة تلجئ إليه ولا حاجة تقتضيه.

علـى هـذه الأسـس التـي تقتضيهـا الأخـوة، والتراحم والتعاون، والاشـتراك في الإِحسـاس، وتبادل الشـعور بين الأفراد. بنى الإِسـلام هـذا المجتمع المتراحـم ولا ريب أن الفقراء والمعوزين إذا شاهدوا الإِسراف من الأغنياء مع عدم الاهتمـام بهم فإِن ذلك يزيد من قلقهم في الحياة مع رؤيتهم تمتـع إخوانهم الأغنيـاء، مما يضاعف همهـم، ويفتح لهم شـر النوافذ التي يعكـرون بها على الجماعـة صفو الحياة، ويزلزلون عليها عناصر الأمن والاطمئنان.

بهـذا الوضـع الـذي انتهجه الإِسـلام في بنـاء المجتمع، وربـط به بين أفراده بما يجعلهم كالبنيان يشـد بعضه بعضا، وكالجسـم الواحـد إذا اشـتكى منـه عضـو تداعت له سـائر الأعضاء بالسـهر والحمى، وكاليدين تغسل إحداهما الأخرى ــ بهـذا الوضـع الذي يركـزه الإِسـلام ويدعو إليـه، ويحذر مخالفته أو التهاون فيه، ويعتبر التهاون فيه إلقاء بالأنفس إلى التهلكـة ــ بهذا كان من غير المعقول أن يبيح الإِسـلام للغنى القادر من أبنائه أن يستقل بمتعة ماله، وأن ينفرد بحق الانتفاع به دون أن يمد يده لسد حاجة المحتاج من إخوانه أو دولته.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»، ومن تركه يجوع ويعرى ـ وهو قادر على إطعامه وكسوته ـ فقد أسلمه، وصح عنه أنه قال: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»، ويقول المحدث: ثم ذكر أصناف المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضله، ويقول عمر بن الخطاب: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين».

وإذا كان من غير المعقول في الإسلام ـ وموقفه هكذا من مبدأ التعاون، أن يباح للغنى أن يقبض يده عن معونة أخيه الفقير، أو عن المساهمة في إقامة المصالح العامة ـ فمن غير المعقول بوجه أبعد وأشد، أن يباح له شد الخناق على رقبة أخيه الفقير، أو دولته المحتاجة، فيفرض عليه أو عليها في مقابلة المعونة الواجبة دراهم معدودة يردها إليه أخوه الفقير المحتاج، أو دولته الفقيرة المحتاجة، زيادة على رأس ماله الذي أقرضه إياهم، سدا للحاجة أو إقامة للمصلحة.

ومن هنا حرم الإسلام ـ إبقاء على هذه المبادئ الإنسانية ـ تحريما قاطعا أن يتخذ الغني حاجة أخيه الفقير، أو دولته المحتاجة، فرصة لاكتساب المال عن هذا الطريق الذي لا

خير فيه للمجتمع ولا للأفراد، والذى يجعل الغني في تربص دائم لحاجة المحتاجين يستغلها في زيادة ماله، دون عمل يحقق به نسبته إلى المجتمع، وجزئيته في بنائه، والذى ينزع من قلبه الشعور بالوحدة، ومعاني الرحمة والعطف التي هي من خصائص الإنسان الفاضل.

وقد جاء في القرآن:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ (البقرة: ٢٧٥)

وجاء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩)

وهذا هو الأصل في تحريم الإسلام على أهله المعاملة المعروفة باسم الربا.

وقد جاء وقلوب الناس فارغة من معاني الرحمة والتعاون، يأكل قويهم ضعيفهم، ويستغل غنيهم فقيرهم، ولا فضل

للغنى سوى أنه ذو مال، ولا ذنب للفقير سوى أن ظروف حياته لم تهيئ له مواد الغنى وسبل الكسب. وفى هذا الجو المظلم تفتق جشع الأغنياء عن هذه المعاملة، وتقاضوا ممن يداينونهم بقرض أو ثمن في مقابلة تأجيل القضاء، زيادة عن رءوس أموالهم، واتخذوا ذلك سبيلا لجمع الأموال وتكديسها من دماء المحتاجين، وبذلك نشأت الرأسمالية الطاغية، فمزقت الإنسانية وجعلت أفرادها أشبه بحيوان الغاب، الغنى يطمع فيفترس الفقير والفقير يحقد فيفترس الغني، ولكل سلاحه الذي يقتل به أخاه.

جاء الإسلام والناس على هذا الوضع السيئ، فأفرغ جهده في القضاء على منابع الشر، وأخذ بمبادئه الحكيمة، يزيل الحواجز التي قطعت ما بين الناس من صلات التراحم والتعاون، والبر والإحسان، وأخذ يبنى المجتمع بناء واحدا متماسك اللبنات، متضام الوحدات، وكان أول ما اتخذه من ذلك في الناحية الإيجابية الحث على التعاون والتراحم، وأخذ القادر بيد الضعيف، ووصل ما قطعوا من صلات. ثم كان تحذيره الشديد فيما يختص بالناحية السلبية، فحرم الربا والرشوة، بعد أن حرم الشح والبخل والضن بحق الفقير والمسكين.

ولإظهار ما بين الناحيتين من تفاوت، قابل القرآن الكريم في كثير من آياته بينهما ووضع أمام الأبصار صورة مضيئة هي صـورة التراحم المطلوبة، وبجانبها صورة مظلمة هي صورة الاسـتغلال الممقوتة، كي يمعن الناظـرون في الآثار الطيبة لصـورة التراحم، والآثار السـيئة لصورة الاسـتغلال فيكون لهم من هذا الوضع ما يردهم عن احترام صورة الاستغلال إلى احترام صـورة التراحم، وبذلك تتحقق إنسـانيتهم الفاضلة ويسـيرون في الحيـاة بخطوات متزنة في البناء والتشـييد، فينعمون بالحياة وتنعم بهم الحياة.

ومـن هنـا لا نكاد نجد آيـة من آيات التحذيـر عن مبادئ الاسـتغلال إلا وبجانبهـا آيـة أو آيـات تعلى من شـأن البذل والمعونة والتراحم. وإن شئت فاقرأ من سورة البقرة المدنية الآيات من الواحد والستين بعد المائتين:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

إلى الآية الثمانين بعد المائتين:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

واقرأ من سورة آل عمران المدنية، الآية الثلاثين بعد المائة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

إلى الآية الرابعة والثلاثين بعد المائة:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

واقرأ من سورة الروم المكية الآيتين الثامنة والثلاثين والتاسعة والثلاثين:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾

اقرأ هذا كله بعين البصيرة، وتدبره بروح الإيمان الصادق تعرف الهدف الذي لأجله حرم القرآن الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وسد أبوابه وأحكم السد على أهله وأتباعه، وتعرف أنه هدف يتصل اتصالا وثيقا ببناء المجتمع بناء متينا تتفاعل وحداته بإحساس واحد واتجاه واحد وغاية واحدة.

وليس دون هذا المجتمع يريد الله.

الديـن والاجتمـاع

عرضنا فيما سبق إلى جملة من أساليب القرآن في الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، وهي في جملتها وتفصيلها ترشد إرشادا واضحا إلى مقدار عناية الإسلام في بناء المجتمع بالتضامن المادي بين المسلمين، وتدل في الوقت نفسه دلالة قوية على أن الإسلام ليس دينا روحيا بحتا، كما يخطئ في تصويره وفهمه بعض الناس فيرون أنه يأخذ من كلمة «دين» معناها الذي اصطلحت عليه بعض الطوائف لأسباب خاصة فيما بينهم، وأنه بذلك يكون فقط علاقة بين العبد وربه، ولا شأن له ببناء الجماعة ولا بتنظيم شئونها.

والواقع الذي تدل عليه الأساليب الواردة في الإنفاق سواء منها ما يختص بالفقير، وما يختص بالمصالح والمنشآت، هو أن الدين الإسلامي دين بالمعنى العام الشامل، يقرر: أولاً صلة الإنسان بربه، ثم يضع أصول التنظيم للعلاقات البشرية، وللشئون العامة التي تتوقف عليها سعادة المجتمع.

وقد رأى أن هذا التنظيم، وتوجيه الناس إليه، واستجابتهم له، لا بد أن يكون مسبوقا بخشيتهم لواضعه، واستشعارهم لعظمته وأنه يعلم من الإنسان سره كما يعلم منه علانيته، وبذلك تستقر في النفوس مبادئ الرحمة والمحبة والتعاون،

وتبادل المنافع وتوحيد الشعور والإحساس، ويرى الفرد نفسه لبنة من لبنات المجتمع فيبذل من نفسه وماله وراحته ما يحقق عنصريته في المجتمع.

رأى الإسلام ذلك، ورأى أن أعظم الوسائل وأقواها في تحقيق الوحدة الشعورية بين أبنائه وأهله، هو أن يأخذهم أولا بما يصفى قلوبهم ويهذب أرواحهم ويصلهم بمصدر الخير المطلق والرحمة الواسعة.

ومن هنا أوجب عليهم عبادات بدنية عينية، فيها يناجون ويرقبون ربهم، ويشتركون في أدائها والقيام بها على موائد من خشيته وعبادته وتقديسه.

أوجب عليهم الصلاة والصوم، وأرشدهم أن ليس القصد أن يولوا وجوههم قبل المشرق والمغرب، وإنما القصد أن تعصم نفوسهم من الفحشاء والمنكر، وأن تغير فيهم أخلاق الشر والبغى والتقاطع، بأخلاق الخير والعدل والتعاطف وبذلك يتحقق الشعور الجماعى الذي يكون مجتمعا فاضلا، يقوم بعمارة الكون، وينشر دعوة الله في الأرض، ويبث مبادئ العدل العام، ووسائل السلام والأمن بين الناس، وهذا هو كل ما يرمى إليه الدين بتشريعاته وتوجيهاته.

والدين يقرر بنصوصه العامة والخاصة أن العبادات إذا لم تصل بصاحبها إلى درجة الشعور بجزئيته في المجتمع، وتدفعه إلى القيام بواجبه فيه ـ لا يقام لها وزن عند الله، ولا يحظى صاحبها بدرجة القبول عنده.

إن الدين الذي يقرر هذا، ويقرر أن من أركانه وعباداته المفروضة ـ التي يكفر منكرها، ويفسق تاركها ـ الإنفاق في سبيل الله بما يسد حاجة الفقير وبما يقيم المصالح الجماعية، ليس معقولا ولا مقبولا أن يكون دينا لا علاقة له ببناء المجتمع، ولا بشئونه. وإذا رغب الناس في التعبير الحق في هذا الشأن فليكن: الإسلام هو دين المجتمع، ودين الشئون الاجتماعية.

أليس الإسلام بكل ما فرضه من عبادات ومعاملات، يعمل على تطهير القلوب من الحقد والحسد؟ ويعمل على تقوية أواصر الألفة والمحبة بين الأغنياء والفقراء، وبين الناس جميعا، ويعمل على عمارة الأرض، وإقامة المشروعات، وإنشاء الحضارات، ويعمل على إعداد القوة التي ترهب الطامعين المفسدين، وتحقق العزة التي جعلها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين، أنجد بعد هذا شيئا من عناصر المجتمع لم يعرض له الإسلام ولم يجعله من أهدافه الأولى؟

الحق والحق أقول، إن المسلمين لم يضعفوا في نهضتهم الاجتماعيــة إلا من يوم بــرزت فيهم هذه الفكــرة الخاطئة، واعتنقهــا مدبرو الأمر فيهم، وقــادة ثقافتهم، فكرة التفرقة بيــن الدين والاجتماع، برزت هذه الفكرة بين المســلمين، إما جهــلا بحقيقة التكاليف الدينية، وإمــا انحرافا مقصودا لتشــويه دين الله وصرف الناس عن التمسك به، وإما مجاراة وتقليدا لقوم قصروا معنى الدين على ما يريدون.

بــرزت هذه الفكرة وقام فعــلا بالإصلاح الاجتماعي دعاة لم يعتمدوا في دعوتهم على سلطان الدين، وانكمش أمامهم رجــال الديــن، وقصروا أنفســهم علــى تلقين الناس رســوم العبادات وكيفياتها الظاهرة، وأحكام صحتها وفسادها.

ومــن هنا قَرَّ في تصور كثير مــن الناس أن الدين بأحكامه وإرشــاداته شــيء، وأن الاجتماع بمقتضياته وشــئونه شيء آخــر، وصرنا نســمع فــي المســألة الواحــدة، أن رأى الدين كذا، ورأى الاجتماع كــذا!! ومن هنا نام الرقيب القلبى في شئون الجماعة، فاضطرب حبلها، وساءت أخلاقها، وتفنن المجرمون في صور الإجرام، وهانت الأعراض.

لو أن المصلحين ترسموا في إصلاح شعوبهم خطى الدين فــي تهذيب النفــوس، وتقويم الأخلاق، واســتعانوا بهدايته

التي تملك الإنسان ـ بإيمانه ـ قلبه وشعوره وإحساسه، لوجدوا من وحي الضمير، ووازع النفس، ما يحقق لهم وجوه الإصلاح التي تعجز عن تحقيقها القوانين، التي لا تملك من الإنسان إلا ظاهره، والتى يستطيع الإنسان إذا ما تجرد عن وازع القلب، أن يحتال في التخلص من تبعاتها، والوقوع في طائلتها.

نعم لا بد للناس من قوانين تساس بها شئونهم، ولأجل أن تحقق القوانين غايتها المقصودة منها لا بد أن تقع في نفوسهم موقع العقيدة، والاحترام والتقديس، فيكون لها بمكانتها في النفوس، وبهيمنتها على الجماعة قوة التفاعل بين وازع العقيدة ووازع الحكم في التوجيه إلى الطريق السوى الذي يرضى الله ويعلى من شأن الجماعة، ويطمئن المصلحين، القائمين على الأمر، المهيمنين على القانون.

بهذا ـ وبهذا وحده ـ تصلح المجتمعات، وتطهر من المساوئ الباطنة والمساوئ الظاهرة وتعيش في أمن وسلام وتقدم وسعادة

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٠)

العبــادات الإسلاميــة

هــذه عناصر أخرى جعلها القرآن مــن اللبنات الأولى في بنــاء المجتمع وهــي «أولا» العبادات التي فرضها الإســلام، وجعلهــا أركانا للدين، بها يبنــى وعليها يقوم، وهي الصلاة والصوم، والزكاة والحج. «وثانيا» الأخلاق التي حث عليها فــي نصوصــه الصريحة، ودعا النــاس إلى التمســك بها في أنفســهم وفى مجتمعاتهــم تهذيبا للنفــوس وربطا للقلوب وغرســا للمحبــة. «وثالثا» الحكــم، في أساســه وفى علاقة المحكومين بالحاكم.

أمــا العنصــر الأول، وهو «العبادات» فهــى على وجه عام مدد للإيمان بالله، تغذيه وتنميه، وسبيل قوى تنفذ منه أشعة الهــدى والنور إلى قلب المؤمن، فيريــه الخير خيرا فيعمله لنفســه ولغيره، وتريه الشر شــرا فيعصم منه نفسه وغيره، وبهذا يكون مصدر خير ونفع لا شر فيه ولا ضرر.

والعنصرية الخاصة للــزكاة والحج بعد هذا المعنى العام واضحــة جلية، ففى «الزكاة» وهي نــزول الأغنياء عن بعض مالهــم، نقــدا أو زرعا، أو عــروض تجارة أو ماشــية، يتجلى معنى التضامن المادي الذي أوجبه الإســلام بين أهله، قياما بحق الفقير في ســد حاجته، وصون كرامته، فيطهر في قلبه من الحقد والحســد، ويخلص في معونة أخيه الغني، وقياما

بحق الجماعة في إقامة المصالح والمنشآت التي لا بد منها لكل مجتمع يريد الاحتفاظ بكيانه، والتمسك بشخصيته.

أما «الحج»، فهو ميدان واسع، يلتقي فيه عشرات الألوف من المسلمين الذين يصورون حالة الشعوب الإسلامية كلها، وفيهم رجال الفكر والعمل، ورجال التدبير والاقتصاد، ورجال السياسة والحكم، ورجال الحرب والجلاد، يلتقي هؤلاء جميعا في مكان واحد، بدعوة من الله حول بيته الكريم بنية العبادة والتقرب إليه سبحانه، وفي ظل من الذكريات الأولى التي توحي إليهم بما يفتح أمامهم سبل الحياة العزيزة، فيتعارفون ويتشاورون، ويتعاونون على تحقيق ما ينفعهم، بوحدة لا تنفصم عراها، وقوة لا يلحقها ضعف ولا تواكل.

وحسبنا في ذلك أن نفهم معنى «المنافع» التي جعل القرآن الحج سبيلا إلى شهودها حينما يقول:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾

(الحج: ٢٧، ٢٨)

وإذا ما عرفنا أن كلمة «منافع لهم» لا تعنى في هذا المقام خصوص المنافع الروحية التي يحققها أداء الأفراد لمناسكهم

وإنما تعنى كل ما ينفع المسلمين أفرادا وجماعات، روحيا وماديا، دنيويا وأخرويا ـ عرفنا الأثر العظيم الذي يجب أن يحصل عليه المسلمون في بناء مجتمعهم من عبادة الحج، ولا ريب أن أول ما ينفعهم باعتبارهم أمة واحدة، ذات عقيدة واحدة، وتشريع واحد، وكيان واحد، هو ما يحقق لهم عمليا وحدتهم، ويسمو بمجتمعهم، ويجعله في مكانة تعلو به عن مواقع الأطماع، ومساقط التيارات التي تمزق كتلتهم، وتمكن الأعداء منهم.

هذه هي «الزكاة»، وهذا هو «الحج»، وذاك هو سبيل عنصريتهما في بناء المجتمع.

أما «الصوم» و«الصلاة»، فقد يبدو غريبا عند بعض الناس أن لهما عنصرية في بناء المجتمع، فهما في ظاهر الأمر عبادتان شخصيتان، لا يدخل في حقيقتهما بذل مال يسد حاجة أو يحقق مصلحة كما في «الزكاة» ولا اجتماع يسمح بتشاور وتعاون كما في «الحج»، ولعل هؤلاء لا يعرفون من «الصوم» إلا هذا المعنى السلبى الجاف، وهو حرمان المرء نفسه من الطعام والشراب وما إليهما، ولا يعرفون من «الصلاة» سوى تلك الحركات التي تؤدى باسم القيام والركوع والسجود.

والواقـع أن «الصــوم» و«الصــلاة» لــم يجعلهمـا الله مددا للإيمان ولا عنصرا من عناصر المجتمع، بل ولم يكلف بهما عباده قبل التكليف بأى شـيء سـواهما ـ علـى هذا المعنى الذي يظنه هؤلاء والذى لم يكن مصدره عندهم قبل التكليف بأى شـيء سـواهما ـ على هذا المعنى الذي لم يكن مصدره عندهم سوى ما ألف المسلمون من «صوم» و«صلاة».

أما الصوم فإن الله يقول بعد افتراضه على المؤمنين:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣)

وكلمة (لعل) صادرة مـن الله ليس معناها الرجاء وتمنى حصول المحبوب، فإن ذلك بالنسبة إليه سبحانه غير معقول وإنمـا معناها إعـداد النفوس وتهيئتها للتقـوى. وواضح أن إعـداد النفـوس وتهيئتها للتقوى لا تكون بمجرد الإمسـاك عن شـهوتى البطن والفرج كما يقال في معنى الصوم، وكما درج عليـه بعض المسـلمين في صومهم، وإنمـا يكون بما يحدثه الصوم في النفس من مراقبة الله واسـتحضار سلطانه، وجبرهـا على ترك ما تألف، فتقـف المراقبة والصبر حاجزا بين الإنسـان وأطماعه الفاسـدة التي ينتهك بها الحرمات، ويسـقط أمامها تقديـر الحقوق والواجبـات وبذلك يرهف حسه ويحيا ضميره، ويعظم خيره لنفسه ومجتمعه وتتحقق لديه التقوى كما أراد الله.

وليست التقوى هي ذلكم اللون الشاحب، أو الصوت الخافت، أو الرقبة المنحنية، ولا هي «الهمهمة» بكلمات تعرف بالتسبيح والتهليل، ولا «الهذرمة» بآيات تقرأ وتتلى، وإنما التقوى ذات عنصر إيجابى يدفع إلى فعل الخير للنفس وللغير، وذات عنصر سلبى يمنع من فعل الشر للنفس وللغير، ولهذه التقوى التي لا يعرف القرآن سواها، فرض الله الصوم وجعله مددا للإيمان، وبها كان الصوم عنصرا قويا من عناصر تكوين المجتمع في نظر الإسلام ومنهجه.

أما «الصلاة»، وهي العبادة التالية للإيمان، والعبادة القديمة التي أخذ بها العهد والميثاق في كل الرسالات الإلهية ـ فإن القرآن لا يعرف منها سوى الصلاة الخاشعة وقد عرض لها على أنها من أوصاف المتقين، الذين هم على هدى من ربهم

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (البقرة: ٥)

وعرض لها على أنها من علامات البر الذي رسمه الله لعباده وجعله عنوانا على صدقهم في الإيمان والتقوى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

وعـرض لهـا علـى أنهـا طريـق للتهذيـب . والوقاية من الفحشاء والمنكر ، والتطهر من غرائز الشر التي تفسد على المجتمع حياته ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ (طه : ١٤)

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾

(العنكبوت : ٤٥)

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج : ١٩ – ٢٢)

وعلى العكس جعل إهمالها عنوان الانغماس في الشهوات وسبيل الوقوع في الغى والضلال :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (مريم : ٥٩)

وهذا وجه عنصرية الصـلاة في بناء المجتمع من جهة ما تحدثه في الأفراد ، من التهذيب الخلقى والسمو الروحي .

وإذا كانـت لبنـات المجتمـع هـي الأفراد ، فـإن كل قوة تكون بالأفراد هي قوة للمجتمع ، ومن هنا عنى الإسـلام في أول ما عنى بتقوية الأفراد عن طريق العقيدة والعبادة .

وإذا مـا عرفنا منزلة « الجماعـة » في أداء الصلاة ، وحرص الإسلام عليها إلى حد أن اشترطها في صحة الصلاة الأسبوعية

وهي صلاة «الجمعة»، عرفنا جهة أخرى لعنصريتها المباشرة في بناء المجتمع، وهي جهة الاجتماع المتكرر في اليوم والليلة خمس مرات. وفى الشهر أربع مرات باسم الدين والعبادة، وفيه تتوثق العرى، ويتركز التعاون.

وإذا ما تنبهنا إلى ما أوجبه الإسلام في صحتها من توحيد جهة الاستقبال فيها، وأنها جهة البيت الحرام الذي تهفو إليه النفوس، وترتبط به القلوب ـــ أدركنا جهة ثالثة لعنصريتها في بناء المجتمع، وهي إشعار المؤمنين بوجوب ترابطهم، وتوحيد وجهتهم وغايتهم، وإشعارهم بأن المركز الذي تلتقى عنده أشعة قلوبهم وهم في الصلاة بين يدى الله هو المحور الذي يجب أن يلتفوا حوله، ويعملوا على نشر هدايته ونوره، وإعلاء كلمته وسلطانه، مهما اختلفت جنسياتهم، وتباعدت أقاليمهم، فهو المجمع للأرواح والقلوب، والمكون للمجتمع الربانى الكريم.

ها هي ذي العبادات التي فرضها الله عليكم أيها المؤمنون، فهذبوا بها أنفسكم، وابنوا بها مجتمعكم كما يحب الله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الأنفال: ٢٩)

الإسلام وعنايته باليتيم

إن أطفال اليوم هم اللبنات الرطبة التي يشاد على كاهلها ـ في المستقبل ـ بناء المجتمع، هم رجال الغد، وبقدر ما يُبذَل في تربيتهم وتقويمهم بقدر ما يكون للأمة من مكانة وعزة، وبقدر ما يهملون فتتمكن من قلوبهم أساليب الانحراف يكون للأمة من اختلال وضعف في القوى الموجهة لها، القائمة بشئونها.

واليتيم طفل من بين الأطفال قد فقد أباه، والعائل الذي يرعاه، فقد القلب الذي يحنو عليه، والروح الذي كان يحوطه ويرعاه فتقوى أعصابه وتنمو جوارحه، وينشرح صدره، وتبتسم له الحياة، فقد بموت أبيه كل ذلك، وأسلمته المقادير إلى الكآبة وتشتت البال والحرمان، فما أحوجه إلى عناية من الرءوف الرحيم، تنتشله من تلك الوهدة، وتجعل له متنفسا يسرى به عن نفسه، ما أحوجه إلى تشريع حكيم، ووصية كريمة من رب رحيم، تحفظ عليه نفسه، وتحفظ له ماله، وتعده رجلا عاملا في الحياة، ليس كَلًّا على غيره، ولا عبئا على أمته، ولا عنصر شر ينفث سمومه في أمثاله الأطفال.

لهذا كله، عنى الإِسلام كتابا وسنة بأمر اليتيم والحث

على تربيته والمحافظة على نفسه وماله، وقد ظهرت عناية القرآن الكريم بشأن اليتيم منذ أن نزل، إلى أن أكمل الله دينه، وأتم على المؤمنين تشريعه. ظهرت في مكيه حينما عاد الوحي إلى النبي ﷺ بعد أن فتر عنه مدة طويلة، توجس الرسول منها أن يكون الله قد قلاه وأبغضه، فاجأه الوحي وهو في هذا التوجس مؤكدا له حسن رعاية الله إياه، وأخذ يثبت ذلك في نفسه، ويذكره بعناية الله له قبل النبوة وهو أحوج ما يكون إلى عطف الأبوة التي فقدها ولم يرها

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى: ٦)

ثم يطلب منه الشكر على تلك النعمة، وأن يكون شكرها من جنسها، عطف على اليتيم ورحمة به

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (الضحى: ٩)

وظهرت في المكى أيضا إذ جعل الله ازدراء اليتيم وإهمال أمره آية من آيات التكذيب بيوم الدين

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ (الماعون: ١، ٢)

وإذ يجعل الوصية به إحدى الوصايا العشر التي لم تنسخ في ملة من الملل، وينظمها مع الإيمان بالله في سلك واحد

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(الأنعام: ١٥١)

إلى أن يقول:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾

(الأنعام: ١٥٢)

وقد تأثرت نفوس القوم بهذه الوصايا المكية التي جاءت في شأن اليتيم، وصاروا من أمره في حرج وحيرة، أيتركون القيام عليه فيفسد أمره ويختل شأنه، أم يقومون عليه ويعزلونه من أبنائهم في مأكله ومشربه فيشعروا بالذلة والمسكنة أم يخالطونه فيعرضون أنفسهم لأكل شيء من ماله؟ أم ماذا يفعلون؟

التمست نفوسهم ما ينقذهم من هذه الحيرة، ويخفف عنهم عبء هذه المسئولية التي ثقل بها كاهلهم، وعندئذ نزل قوله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾

(البقرة: ٢٢٠)

فأفهمهم أن المخالطة مع العدل والإصلاح من مقتضى ما بينهم من الأخوة الإنسانية والدينية والرحم.

ثم جاءت سورة النساء وبرزت فيها عناية خاصة باليتيم في شأنه كله، ومهدت لهذه العناية بطلب تقوى الله والأرحام. وبيان أن الناس جميعا خلقوا من نفس واحدة، فاليتيم حتى وإن كان من غير أسرتكم، أخوكم ورحمكم، فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم واحفظوا أمواله، وهذبوا نفسه، واحذروا اغتيالها وأكلها، واحذروا إهماله وإلقاء حبله على غاربه، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (النساء: ٢)

ويقول:

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٦)

هذا بعض ما نقرأ في القرآن من وجوه العناية باليتيم، في ماله وتربيته وتهذيبه. وقد ورد في الهدى النبوى الشيء

الكثيــر من العِدَةِ برفع الدرجات فيما يختص بكفالة اليتيم، والقيام بحقه وواجبه، وحســب من كفــل اليتيم ورعاه وقام بوصايــا الله فيــه أن يكون مــع النبي ﷺ فــي الجنة صاحبا وقرينا، يتمتع بما فيها من النعيم، كما متع اليتيم برعايته، وحســن معاملتــه، والإشــراف عليــه: (مــن عــال ثلاثة من الأيتــام كان كمــن قام ليلــه وصام نهاره، وغدا وراح شــاهرا ســيفه في ســبيل الله، وكنت أنا وهو في الجنة إخوانا، كما أن هاتين أختان «وألصق الســبابة بالوســطى»)، (خير بيت فــي المســلمين بيــت فيه يتيم يحســن إليه، وشــر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه).

أمــا هذه الأم التي مــات عنها زوجها، وهــي ذات منصب وجمال، وترك لها أيتاما، فتأيمت عليهم، وحبســت نفسها علــى خدمتهم، حتى تغيــر لونها وانطفأ جمالها، ونســيت وســائل الزينة، ومظاهــر الجمال، في ســبيل هيمنتها على الأيتــام، وفى ســبيل تربيتهــم والمحافظة عليهــم. أما هذه السيدة فحسبها مكانة عند الله قول الرسول ﷺ: «أنا وامرأة ســعفاء الخدين [متغيرة اللون] كهاتين يوم القيامة» وأشــار بالسبابة مع الوســطى يريد أنها بجانبه ملتصقة به لا يفصل بينهما في الجنة شيء.

هذا هو إرشاد الله ورسوله في تهيئة اللبنات التي تبنى المجتمع الإسلامي والتى يشاد عليها صرحه، فيرتفع بناؤه، ويعظم ظله، وتكثر ثماره، فيا أيها الأعمام، ويا أيها الأوصياء كونوا في الإشراف على اليتامى في حذر من غضب الله، واعلموا أن إهمال اليتيم لا يقف ضرره عند اليتيم، بل هو ضرر تتفشى جراثيمه، وتنتشر سمومه في جسم الأمة كلها، فيعتريها الضعف والانحلال، وتبوء بالخزى والدمار، وشر بيت كما يقول الرسول بيت فيه يتيم يساء إليه، والأمة بيت، فشر أمة أمة فيها يتامى يساء إليهم فيهمل أمرهم، وتفسد أخلاقهم، وتنقطع صلتهم بخالقهم، ويكونون لبنات هزيلة في بناء الأمة، فتسقط من عليائها وتصبح أثرا بعد عين.

إن الدهر قُلَّب، والناس في سفينة تتقاذفها أمواج الحياة، ترفعها تارة وتخفضها أخرى، ولا عاصم إلا من رحم الله، ولا يرحم الله إلا من امتثل أمره، واتبع هداه، ومن كان تحت يده يتيم فليذكر غيرة الله على اليتيم، وليذكر أن ما نزل بغيره فترك أولاده أيتاما قد ينزل به، فيترك أولاده هو الآخر أيتاما:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء: ٩، ١٠)

الإسلام يدعو إلى التقدم

الإِسلام هو هداية الله، وتنظيمه لعباده، بعث بتبليغه كل الرسل وأنزل ببيانه كل الكتب، وما كان الرسل بالنسبة إليه، إلا كبناة بيت واحد، يعد السابق منهم لعمل اللاحق، ويكمل اللاحق منهم على عمل السابق وهكذا أرسل الله رسله تترى على هذا المنهج منهج الإِعداد للاحق والتكميل للسابق، وظل الأمر يتدرج حتى وصلت الإِنسانية إلى طور الرشد، واستعدت لتلقى النظم القوية في بناء الحياة، بناء يتفق ونمو الإِنسانية، وعندئذ وفى هذه الفترة اكتملت الوسائل الإِلهية لميلاد الرسول محمد ﷺ.

فسرت بميلاده روح النشاط الإِنساني، وبدت في جوانب العالم، وفى البيئة التي ولد فيها آيات الإِقبال على عهد تتهيأ فيه الإِنسانية لاستقبال الصورة الختامية للهداية الإِلهية.

هذه الصورة العامة، التي لم تدع ناحية من نواحى الحياة، ولا جانبًا من جوانب الإِنسان إلا عالجته، ووضعت له من المبادئ ما يسمو به إلى أقصى ما قدر له من درجات الكمال، تلكم الصورة الخالدة، التي لا يكشف النضج الإِنساني مهما تقدم وارتقى، عن قصور فيها، أو تقصير

عما يدفع الإِنسـان إلى التقدم، فضلًا عمـا يلبى حاجته في معترك هذه الحياة.

تلكم الصـورة العامة الخالدة التـي أخذت من مقتضيات الفطـرة الإِنسـانية هـذه الفطرة التـي تنطوى على الشـعور بالقـوة الوحيـدة، الغيبية، المحيطة بخصائـص ما خلقت، وهذه الفطرة التي ينتظم واقعها مادة: كمالها وسـعادتها في التمتع بخير هذا الكون وأسـراره وروحًا كمالها وسـعادتها فـي التمتـع بالمعرفة الحقة، وبالإِشـراق الذي يلحقها من سماء تلك القوة العلمية الحكيمة.

وإنـا لا نجد مصدرًا أقـدر ولا أوضح في التعبير عن كمال تلك الصـورة الختاميـة للهداية الإِلهية مـن كتابها المعجز الخالد، فهو عن جملتها يقول:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾

(الإِسراء: ٩)

ويقول:

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

(الإِسراء: ١٠٥ – ١٠٦)

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (المائدة : ٣)

أما عن تفصيلها فإنها تنتظم بالاستقرار والتتبع الدقيق أخذًا من مصدرها المقدس، أربع شعب : شعبة العقيدة وشعبة الأخلاق، وشعبة المعاملات، والشعبة الرابعة، شعبة الإنسان في الكون، أو شعبة الكون أمام الإنسان.

فشعبة العقيدة، تطلب من الإنسان، الإيمان بمصدر الوجود والخير، وإفراده بالعبادة والتقديس، والدعاء والاستغاثة، وبذلك يعرف الإنسان نفسه، فلا يذل لمخلوق، ولا يخضع لغير الحق، وتطلب الإيمان بيوم الحساب والجزاء، فيجد الإنسان من ضميره وازعًا يرقبه في سره وعلانيته، ويرى الجريمة يرتكبها في خلوته وانفراده كالجريمة يرتكبها في جلوته ومجتمعه، ولا يجد بابًا ينفذ منه إلى الجريمة مهما بعد عن الأنظار، ومهما خلا ونفسه، وتلك خاصة للتشريع الإلهى لو آمن بها المشرعون وركزوها في النفوس لامتلأ العالم أمنا واستقرارًا.

وتطلب الإيمان بمعرفة طريق الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وربط به سعادتهم من الملائكة والكتاب والنبيين وقد جاءت العبادات من صلاة تذكر الإنسان بربه في فترات

متعاقبة، وصوم يغرس فيه خلق الصبر الذي لابد منه في الحياة، وزكاة يمد بها يد المعونة لأخيه المحتاج، فيتبادلان المحبة، وحج يحيى به مع إخوانه ذكرى المصلحين الأولين الذين اصطفاهم الله لإنقاذ عباده من هوة الضلال والمآثم، جاءت هذه العبادات دليلًا شاهدًا على صحة العقيدة ومددًا يغذيها ويقويها.

أما شعبة الأخلاق، فهي تطلب من الإنسان أن يهذب روحه ويكمل نفسه بمعاني الإنسانية الفاضلة: إخلاص في العمل وصدق في القول، ووفاء بالعهد، ورحمة وتعاون، وعزيمة وصبر، وقوة في الحق، وما إلى ذلك مما يحفظ للإنسانية مكانتها.

وليس من ريب في أن هاتين الشعبتين، شعبة العقيدة، وشعبة الأخلاق، على حسب ما جاء بهما الإسلام من أعظم القوى التي ترتكز عليها الإنسانية في رقيها وسعادتها، وليس في واحدة منهما إلا ما يحمل الإنسان على احتمال ما يكره في سبيل رضا الله، وفى سبيل السمو الإنساني لنفسه ولبنى جنسه.

وفى ظل هاتين الشعبتين، كان الربانيون، وكان الشهداء وكان الصالحون، وبهاتين الشعبتين طهر الإسلام القلب الإنساني من الشرك والوثنية التي زعزعت العالم

أجيالًا كثيرة، وطهر النفس الإنسانية من الحقد والحسد والنفاق، والجبن والكذب والخيانة، التي كثيرًا ما أفسدت على الناس حياتهم، ومكنت فيهم المظالم والطغيان.

وهذا إصلاح باطنى أساس لكل إصلاح خارجي، ولا بقاء لإصلاح خارجي إلا إذا تركز وكان نتيجة وأثرًا لهذا الإصلاح الباطني، ولعل قوله ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» من أقوى العبارات المأثورة في تقرير القضية التالية: صلاح الظاهر نتيجة لصلاح الباطن.

بقى أمامنا من الشعب التي رجَّعنا إليها الإسلام شعبتان: شعبة النظم التي تساس بها الجماعة، وهي المعروفة في اصطلاحنا بقسم الأحكام، أو بقسم التشريع، وشعبة الإنسان في الكون، وهي معروفة في اصطلاحنا بتعريف خواص الأجسام.

أما شعبة النظم، فحسبنا في نهوضها بالإنسان، وفى حمله على النهوض، أنها مبنية على أساسين يؤازرهما أساس ثالث وثلاثتها أقوى العمد التي تشاد عليها الصروح العالية للمجتمع الإنساني الفاضل، المصلحة، والعدل، تؤازرهما الشورى الحقة الصادقة.

أما مكانة الشــورى في الإسلام فبينة واضحة، تجلت في نصــوص القــرآن كما تجلت في عمل الرســول مع أصحابه، وفــى عمل أصحابه بعضهم مع بعــض، أما المصلحة فتراها ماثلــة فيمــا نص عليه مــن أحــكام ومأمــورًا بمراعاتها فيما فُوِّض من الأحــكام إلى اجتهاد أولى العلــم والمعرفة بوجوه المصالح والنفع العام.

أما العدل فإنا لا نســتطيع أن نظفر بمبدأ غيره من مبادئ الحيــاة عنى بــه القــرآن، وكرر الأمــر به في صــور مختلفة وأســاليب متعــددة، وحــذر مخالفته، كيف وقــد جعله الله الغاية من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، في جميع مراحل الهداية:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)

وفــى بنــاء الإســلام لشــعبة النظــم والقوانين علــى هذه المبادئ الثلاثة: الشورى، والمصلحة، والعدل، بمعانيها التــي أبرزهــا القــرآن، مــا يجعــل الحكــم والعدل يســخر السخرية كلها من العناصر التي بنيت عليها شعبة النظم في الحضارات الحديثة، التي لا تمت بمصدر التقديس والخير المطلــق وإذا امتلأت النفس البريئة من التعصب، بقوة هذه

الشعب الثلاث: العقيدة، والأخلاق، والنظم، في إنهاض الإنسانية والسير بها في طريق التقدم.

فإليها الشعبة الرابعة وهى:

شعبة الكون أمام الإنسان: آثر الله الإنسان على ملائكته لمهمة الخلافة في الأرض، وأظهر قوته عنهم في عمارتها، والانتفاع بأسرارها، ثم أشعره بالعبارة الجلية الواضحة، بأنه بسط أمامه الكون، وسخره له، ليعمل فيه ويكافح، وكان من ذلك قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

(البقرة: ٢٩)

سخر له الشمس والقمر، وسخر له الليل والنهار، وسخر له البحار والأنهار، وسخر له الأرض والجبال، وسخر له الأنعام والحيوان، وسخر له كل ما في الكون وأمره ببحثه والنظر فيه، واستخراج أسراره، والانتفاع بذخائره ونفائسه، ثم حد من طغيان الإنسان يصل إليه من تلك الأسرار وحذره استخدامها في التدمير والتخريب وطلب إليه أن يستعين بها في الإنشاء والتعمير حتى يكون العالم مظهرًا لجود الله ورحمته بعباده.

وبهذه الشعبة وقد كثرت آياتها في القرآن يعلن الإسلام أنه دين الحضارة المعمرة لا المخربة، العادلة لا الظالمة، الرحيمة لا الجبارة.

وإذا ما ضم أثر هذه الشعبة إلى آثار الشعب الثلاث الأولى، تجلى من غير شك أن الإسلام ليس دينًا يساير النهضات الحديثة فحسب، وإنما هو دين ونظام إلهي ينقى الحضارات الحديثة من الطغيان والتهور، ويدفع الإنسانية بروح من إيمانها وضميرها إلى السير في طريق الفضيلة والتعمير والقضاء على الشرور والمفاسد، إلى أن يأتى أمر الله.

هذا هو الإسلام الذي هو دين العمل والكفاح، والمصلحة والتضحية في سبيل الحق، ونشر راية السلم على ربوع العالم.

نعم جرت كلمات في بعض العصور على بعض ألسنة هزيلة وأخرى مأجورة، كان من آثارها في الجمهور العاقل تفشى روح البطالة، والتواكل والإلقاء بالنفس في أحضان الغيب المجهول، وقد عملت هذه الكلمات عملها في النفوس باسم: كمال الإيمان، وباسم «التوكل على الله» وباسم «بركة التسليم للقضاء» وما إلى ذلك مما صرف المسلمين عن التفكير في سنة الحياة الجادة التي كونها الإسلام بهذه الشعب الأربع.

وبذلـك وقفت فـي المســلمين حركة التفكيــر والعمل واســتخدام ما ســخر للإنســان في هذا الكون، كما أســيء إلـى فهم المبادئ الإســلامية الصحيحة، فانتابهم الضعف، وأصيبــوا بالشــلل، وهيأوا للنــاس أن ينالوهم بمــا أرادوا، وأن يرموا دينهم بما شــاءوا، وبذلك أســاءوا إلى أنفسهم، وأساءوا إلى دينهم.

ونرجــو أن يجعــل الله مــن ذكرى ميلاد رســول الإســلام محمد ﷺ ما يبعث المســلمين إلى تفهــم دينهم على وجه الحق، فيطهروا قلوبهم بالعقائد الصحيحة ويزكوا نفوسهم بالأخلاق الفاضلة ويسوســوا أنفســهم بنظم الله، المحققة للمصالح والعدل بين الناس، ويعمروا الكون بما سخر لهم في الحياة:

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(الحديد: ١٦ – ١٧)

خير السبل لتوحيد كلمة المسلمين

من القضايا التي لا تحتاج إلى برهان: «لا وجود لمن لا شخصية له».

والوجود منه حسى وقِوامه شخصية حسية، ومنه معنوى، وقِوامه شخصية معنوية. والموجود لا يحظى بالوجود المطلق إلا إذا نال نصيبه من الشخصيتين، الحسية والمعنوية، فيتحقق له الوجودان، الحسى والمعنوى.

نرى ذلك في الأفراد وفى الأمم وفى كل شيء. والشخصية الحسية للفرد ترجع إلى صورته التي ركب عليها. والشخصية المعنوية ترجع إلى درجة عقله وتدبيره وما عنده من ثبات ومثابرة على مبدئه وهدفه.

والشخصية الحسية للأمة ترجع إلى صورته التي ركب عليها، والشخصية المعنوية إلى شعورها بقيمتها في الحياة وفى نصيبها منها، وعلى قدر ما يكون لها من هذه الشخصية يكون لها بين الأمم من الوجود المعنوى، فإما ارتفاع وسلطان وعزة، وإما انحطاط وقهر وذلة.

وقد درج العرف البشرى منذ أن تعددت خلايا الإنسان على اتخاذ الإقليمية أو الجنسية أو المذهبية، أساسًا

للشخصية المعنوية، ومن هنا تباينت الأهداف، وتضاربت الرغبات، واختلفت السبل، وتولدت العداوات، وكانت الأطماع، وكانت الأنانية، وكان التسخير، وأخيرًا كانت الحروب، وكان الفتك والتدمير.

كل ذلك وأرباب الشخصية الإنسانية العامة التي رسمها العليم الخبير بطبائع الأمم والأفراد، والتى أدارت دولاب العالم حينًا من الدهر، فوجهته إلى كثير من الخير، وفتحت له أبوابًا من العلم النافع فقد انتابهم من الضعف والشلل بسبب التفرق المذهبى أو السياسى ما يجعلهم أشلاء مبعثرة في أنحاء الكرة الأرضية. يُسَامون ويساوَمون، حتى لقد نزع كثير منهم شخصيته الإلهية المجمعة، وانحاز إلى تلك الشخصيات التي لا هم لها إلا القضاء أولًا وقبل كل شيء عليهم وعلى إخوانهم المنتسبين إليها.

أيها الأخ الكريم تسألنى عن خير السبل لتوحيد كلمة المسلمين ولم شعثهم؟ وهو في جوهره سؤال عن خير السبل لرجوعهم إلى شخصيتهم المعنوية التي رسمها الإسلام والتى على أساسها يجتمعون وبها يعزون، وهو سؤال شغل من قديم أفذاذ المسلمين الذين أدركوا الداء وعرفوه، والتمسوا الدواء وبحثوا عنه، والواقع أنه سؤال

جوابـه واضح بين في كتاب الله، كتاب الشـخصية المعنوية للمسـلمين، ولا عذر لأحد منهم في الجهل به أو الغفلة عن سبيله.

يقول الله في كتابه الكريم:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ **(الأنعام: ١٥٣)**

ويقول:

﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

(هود: ١١٢ - ١١٣)

ويقول:

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

ويقول:

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ **(الأنفال: ٤٦)**

فهذه الآيات التي تلوكها بألسنتهم شعوب المسلمين، حكامًا ومحكومين، معلمين ومتعلمين، رؤساء ومرؤوسين، ترسم خير السبل لتوحيد كلمتهم ولم شعثهم، وتجمله في كلمة واحدة، هي الاعتصام بحبل الله.

وليس من شك في أن الاعتصام بحبل الله يُلزم علماء المسلمين وقادتهم باجتماع عام، تمثل فيه جميع الشعوب بالأفذاذ من علماء الدين والتشريع، وعلماء التربية والتهذيب، وعلماء الاقتصاد والحضارة وعلماء القوة والحرب. وفى ظل هذا الاجتماع الذي تنحى عنه شهوات العصبيات وأهواؤها يتقرر النظر في تنقية العقائد والأعمال مما لحقها من صور الشرك والابتداع، تلكم الصور التي هيأت لخصوم الإسلام، والمفتونين بهم من أبنائه المنتسبين إليه، هيأت لهم أن يقولوا: إن الإسلام ليس دينًا واحدًا وإنما هو أديان متعددة، تختلف باختلاف الأقاليم والمذاهب.

وفيه يتقرر وضع نظام محكم الحلقات لنشر الدعوة الإسلامية في أرجاء العالم يكون أساسه الإعداد القوى لرجل الدين الذي يقتحم الصعاب، ويمتلك القلوب بعلمه وبيانه وفعله وسلوكه.

وفيــه يتقرر إنشــاء منظمة إســلامية اقتصادية وحضرية، مهمتها تنســيق وســائل الاقتصاد والحضارة، وسد حاجات الجماعات الإِســلامية بعضها من بعض، فلا يجد المستعمر نافذة يخلص منها إلى استنزاف البلاد وتثبيت قدمه فيها.

وفيــه يتقرر العمل الجاد الســريع في تكويــن قوة حربية عليــا، ذات تدريب واحــد، وقيادة واحــدة، على أحدث ما يعرفــه أهل الحرب في هــذا العصر لا لتخــرب وتدمر، ولا لتستعبد وتســتعمر ولا لتخرج الناس من أوطانهم وأموالهم وأمنهم وإنما لتدفع شر الاعتداء وتخلص الرقاب المسالمة، وترهب أعداء الله وأعداء الإِنسانية.

الأعمال وأساس قبولها عند الله

يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨)

كان النبي ﷺ حريصًا على قومه، وكان بالمؤمنين رءوفًا رحيما، وكان من رحمته بهم تعهدهم بالموعظة الحسنة، وإرشادهم إلى ما يزكي نفوسهم، ويطهر قلوبهم، ويطبعهم على محبة الخير والفضيلة؛ لأنه خير وفضيلة. وبذلك سمت أغراضهم وقويت عزائمهم، ونهضت هممهم، وارتبطوا في أعمالهم بمصدر الخير الدائم لا ينقطع مدده ولا يُحجب رفده، فاستقامت لهم الأمور، وانتظمت بهم الشئون وسارت في طريق الكمال لا تلتوى بهم مسالك الهوى، ولا تأخذ بهم تيارات الشهوة عما أعده الله لعباده المؤمنين من حياة عزيزة دائمة، وسعادة أبدية خالدة.

وهكذا كان يرشد الرسول أمته، وهكذا نهضت أمته بالحياة وكملوا نفوسهم بالإخلاص لله فألقت الدنيا إليهم بمقاليدها، واستقرت لهم الكلمة في أرجائها وأصبحوا بعد

جاهلية آثمة أئمة يهدون بأمر الله.

ولقد كان من أهم الإرشادات التي تتصل بإصلاح القلوب والنفوس، بل من أهم أنواع العلاج في تقوية العقيدة، وتهذيب النفس والخلق، ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

حديث عظيم الشأن، جليل القدر، لا من جهة دلالته على فرضية النية في الوضوء أو عدم دلالته، وإنما من جهة ما يبين للناس الأسس التي تحوز به أعمالهم المشروعة: وضوءا أو صلاة، زكاة أو حجًّا، صومًا أو إرشادا، درجة القبول عند الله، ويبين لهم أن هذا الأساس ليس من الشئون التي تخرج عن طوق الإنسان وقدرته، أو تعزب عن إدراكه وتقديره. يبين لهم أن هذا الأساس ليس هو مجرد الحركات والسكنات، أو الصور والأشكال التي يراها الناس فيخلعون على صاحبها صفات التقوى والورع، غير ناظرين إلى ما تحمل نفسه من البواعث التي تدفعه إلى هذه الأعمال.

يبين لهم أن الشأن في قبول الأعمال أو رفضها عند الله،

إنما هو الروح يحسه الإنسان من نفسه، ويعلمه الرب في عبده حين يتجه إلى العمل، فإن كل عاقل لابد له من غرض يقصد إليه بعمله وإذا ما خلا من غرض يقصد إليه بعمله كان عابثًا، وكان عمله كجثة هامدة، لا قيمة له ولا خير فيه.

وإذا كان لابد لكل عاقل من غرض يقصد إليه بعمله، فإن ذلك الغرض هو الأساس في قبول الأعمال ورفضها، هو الميزان الذي به تعرف درجة الأعمال عند الله، فإذا ما سما الغرض ونبل المقصد واتصل بالإرادة الدائمة والتمس به مرضاة الله كان ذلك سببًا قويًا في تقبل الأعمال وارتفاع الدرجات وكان في الوقت نفسه دليلًا واضحًا على قوة الإيمان العامل بالله، وشدة مراقبته لمولاه، فيتقي ويحسن، ويكون منه في كنف ومعية:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾

(النحل: ١٢٨)

وأما إذا سفل الغرض وانحط المقصد، واتصل بإرادة الحصول على شهوة زائلة أو سمعة زائفة، أو حيلة خادعة، فإن ذلك يكون سببًا قويًا في رفض الأعمال وردها على أصحابها، وكان في الوقت نفسه دليلًا واضحًا على خلو القلب من روح الإيمان الصادق وعلى عدم تمثله عظمة الله

ومراقبتـه، وكان العامـل فـي تلك الحالة بـاذلًا بعمله دينه لدنياه، هازئًا بعبادة مولاه، وكان جديرًا ألا ينظر الله إليه ولا يزكيه ولا يكلمه:

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٦)

فمن ابتغـى تقديس الله بصلاته وصومه، وابتغى مرضاته بالبذل والجهاد في سبيله، وابتغى بإرشاد الناس إصلاحهم، وتوجيههـم إلـى الخيـر، وابتغى بحكـم النـاس والهيمنة عليهم، إقامة العدل، وإيصال الحقوق إلى أربابها، وإنصاف المظلـوم من الظالـم، والرحمة بالضعفـاء، وقعت أعماله عنـد الله موقع الرضا والقبول، وتولاه برعايته، وسـدده في قوله وعمله، ونشر عليه من رحمته وجعله مورد خير دائم لله ولعبـاد الله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٤)

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٥)

(ربــوة: بســتان بمــكان مرتفــع) (وابل: مطــر غزير) (ضعفين: ثمارها مثلين) (فطل: مطر قليل).

أمــا من صلى أو صام، أو تصــدق أو جاهد، أو دعا الناس إلى شــيء من ذلك بقصد أن يخلع الناس عليه لباس التقوى والصــلاح، أو لبــاس الســخاء والكــرم، أو لباس الشــجاعة والإقدام، أولباس الحكم والسلطان، أو لباس العلم والمعرفة، فهذا ونحوه مردود عليه عمله، وصفقته عند الله كاسدة غير نافعة وخاســرة غير رابحة لا يعرف من صور الخير إلا حيث قدر لنفســه مغنمًا خاصًا، أو لمع له برق لا ينتفع به ســواه، ولا يظهر له في أخراه.

هذا هو الأســاس في قبول الأعمــال ورفضها عند الله وقد ضرب الرسول ﷺ في تلك العظة القيمة، الهجرة من مكة إلــى المدينة مثلًا طبق عليه هذا الأســاس الذي قرره: «فمن كانت هجرته إلى الله ورســوله فهجرته إلى الله ورســوله ومن كانــت هجرته إلــى دنيا يصيبها أو امــرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

مثــل من واقع الحياة التي انتظمته ﷺ هو أصحابه كانت الهجرة من مكة إلى المدينة في ذلك الوقت، وقت أن تألب الكفار على النبي ومن آمن معه من أهم الواجبات الدينية التي

أمر الله بها رسوله، كانت واجبة حفظًا للدين بإقامة شعائره ونشر أحكامه والجهاد في سبيله مع المهاجرين والأنصار.

كانت واجبة جمعًا للكلمة وربطًا للقلوب في إعلاء كلمة الحق والدين.

وقد هاجر في سبيل ذلك مع النبي من هاجر، وكان من بين المهاجرين رجل لم يهاجر بنية المهاجرين الصادقين، وإنما هاجر تبعًا لامرأة يقال لها أم قيس، يريد أن يتزوجها، وشاع بين الناس أمره ووصل إلى الرسول خبره، فاتخذ الرسول من واقعة الحال المعلومة لهم نصيحته الغالية وحكمته البالغة، فقال: إن «هجرته إلى ما هاجر إليه» فليلتمس منها الجزاء، فليس له عند الله جزاء.

هذا هو الأساس في تقدير الأعمال عند الله، وهذا إرشاد النبي ﷺ لأمته كي يظفروا بالقبول والرضا عند الله وكي تنطبع في نفوسهم محبة الله إياه.

فإلى مهاجرى أم قيس في هذا الزمن وما أكثرهم. إلى هؤلاء الذين يتخذون الدين مغنمًا والدعوة إلى الفضيلة متجرًا، والحكم بين الناس صلفًا وتعسفًا.

إلى هؤلاء الذين يلبسون للناس مسوح التقوى، ويتسترون بصور من الطاعات لا روح فيها ولا حياة ليتخذوا من صورة الخير قنطرة يعبرون عليها إلى الشهوات والأغراض السيئة نوجه هذا الحديث العظيم «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

الابتداع في الدين

كلف الله عباده بعقائد تتصل به سبحانه وبرسالاته وكتبه إليهم، وتتصل باليوم الآخر الذي أعده لدار الجزاء وكلفهم أيضًا بعبادات: هي غذاء لهذا الإيمان، وعلامة على الصدق فيه، وحرم عليهم أشياء صونًا لحياتهم وحفظًا لعقولهم وأعراضهم وأخلاقهم، وقد فصل لهم في كتبه ورسالاته ما كلفهم به وما حرمه عليهم وكان مجموع ما فصل وبين على الوجه الذي بين وفصل هو الدين الذي تعبدهم به، ولا يقبل منهم سواه.

وكان امتثاله والقيام به على الوجه المبين في الكتب الإلهية وعلى ألسنة الرسل، هو التدين الصادق، الذي يقف بصاحبه في العقيدة والعبادة، والحل والحرمة عند حد ما شرع الله وبين، وكان التصرف في شيء منه هو الانحراف عن دين الله وهو الابتداع فيه.

ومن هنا يعلم أن الابتداع في الدين، إنما يكون فيما تعبدنا الله به من عقيدة أو عبادة، أو حل وحرمة.

أما ما لم يتعبدنا الله بشيء منه، وإنما فوض لنا الأمر فيه باختيار ما نراه موافقًا لمصلحتنا ومحققًا لخيرنا بحسب

العصـور والبيئات، فإن التصرف فيه مـن مقتضيات التطور الزمنـى الـذي لايسـمح بالوقوف عنـد حد المـوروث من وسائل الحياة عن الآباء والأجداد.

وإذا كان لحيـاة الأبنـاء والأحفـاد وسـائل غير وسـائل الحياة لأسـلافهم، كان من ضرورة بقائهم، وطيب حياتهم، ومسايرتهم للتقدم الزمنى، أن يخلعوا وسائل الأسلاف التي لا تتفـق وزمنهـم، ويعملوا جاهدين فـي تلبية عصورهم بما تطلبه وتقضى به، وإلا تخلفوا عن الركب المجدّ في السير، وانقطـع حبل اتصالهـم به، وصاروا في عزلة لا يسـمع لهم فيها صوت، ولا يعرف لهم فيها وجود.

ولـو كان من سـنة الله في تعبده لعبـاده، أن يقيدوا في هذا الجانـب بمنهـج خـاص، لحدد لهـم أرض الزراعـة وأنواعها وطرقها، ولحدد لهم نوعًا أو أنواعًا من الصناعات ووسائلها، ولحـدد لهـم نوعًا مـن القوة التـي أمرهم بإعدادهـا وأطلقها إطلاقًـا، ولحـدد لهـم نوعًـا أو نوعين مـن مظاهـر الحضارة المختلفـة، التي يعلم أنها سـتكثر وتنتشـر، وتأخذ بأطراف العالم، ولكنه سبحانه وتعالى لم يحدد لعباده شيئًا من ذلك، بل أطلق للعقل الإنساني حريته في هذا الجانب كله ولم يأمره إلا بالبحث والنظر، والكد والعمل بقصد الإصلاح والتعمير:

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ ﴾ (البقرة: ٢٢٠)

وقد كان كل ما أخذ به الأمم السابقة، وقبحه منهم ونعاه عليهم خاصًا بالابتداع في العقائد والعبادات، والحل والحرمة، ولم يكن شيء منه مما يتصل بزينة الحياة التي أخرج لعباده، أو بنموها وتقدمها، فهو لم ينكر مثلاً على أهل سبأ أن يكون لهم جنتان عن يمين وشمال، ولم ينكر على قارون أن كان له من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة.

بل نرى في القرآن الكريم امتنانه سبحانه على داود بإلانة الحديد له، ونرى أمره إياه بصنع الدروع السابغة الواقية ثم نراه سبحانه يرضى عن دعوة سليمان:

﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ﴾
(ص: ٣٥)

ويفسح له مجالها فيسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ويسيل له عين القطر، ويسخر له الجن، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات، ثم يطمعه في المزيد ويغريه بالعمل:

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾
(سبأ: ١٣)

نعم لم ينكر الله على أحد من خلقه ابتداع شيء من متع الحياة الطيبة، ولا من وسائل قوتها واتساع عمرانها، وإنما كان الذي أنكره ابتداع الناس فيما بين ورسم، وتعبد به عباده في العقيدة والعمل، والحل والحرمة.

أنكر على من تخيلوا أن في بعض المخلوقات روحًا من ألوهية الله، بها كان نظرهم إلهًا أو بعض إله، وبها استحق أن يعبد، وأن يشفع عند الله، وأن يقرب إليه زلفى، وأنكر على من غيروا وبدلوا في رسوم العبادة وكيفيتها، فعبدوا بما لم يشرع، وغيروا فيما شرع، فكانت صلاتهم عند البيت مكاءً وتصدية، وطافوا به عرايا، وحرموا ما أحل الله

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ (الأنعام: ١٣٨)

هذا وحده هو الابتداع في الدين، هو الابتداع الذي يخرج به المؤمن عن دائرة الرسالة الإلهية، هو الابتداع الذي يغتصب به المبتدع حق الله في تشريع هو له وحده، هو الابتداع الذي به يضع المبتدع نفسه موضع من يرى أن العبادات أو العقائد، التي رسمها الله ليتقرب بها العباد إليه، ناقصة أو فاسدة، فأكملها أو أصلحها بابتداعه، أو موضع من

يرى أن الرسول الذي اصطفاه الله لتبليغ دينه، قد قصر فيما أمر بتبليغه، وحجز عن عباد الله بعض ما يقربهم إليه.

ولقد كان هذا الابتداع هو السبب الوحيد في نسيان الأمم السابقة شرائع الله وأحكامه، هو السبب الوحيد في اندراس العقائد والعبادات، وفى التحلل من قيود الحل والحرمة، وانتزاع التدين من القلوب. وبذلك انقطعت صلتهم بالخالق، وصار أساس التعامل بينهم القوة الغاشمة، والطغيان المزرى بالإنسانية.

هذا وقد جرت على ألسنتنا من قديم كلمة «بدعة» وأخذها البعض عامة في العبادات والعادات، وحرموا باسمها كثيرا من العادات الطيبة، ووسائل الحياة القوية، وأهدر بعض آخر قيمتها باسم حرية الرأى، وامتدت إلى العقيدة فأفسدتها، وإلى العبادة فحرفتها أو أهملتها، واستباح المنتسب للإسلام بهذا الوهم الخادع، أن يعتقد ما يشاء، وأن يعبد أو لا يعبد كما يشاء.

وتبعا لاختلاف المنتسبين إلى الدين في هذا الوقت، اختلفت الأمة على نفسها، وصارت شيعا وأحزابا، لا أقول في الإقليم والإقليم، وإنما نرى في الإقليم الواحد، ونسمع طعن المتدينين بعضهم في بعض:

بالإلحاد والزندقة، والتزمت والجمود، وبذلك تفرقت القلوب وضعفت الوحدة، وتعرض الدين للتلاشي، كما تعرض له من قبل.

فهل لعلمائنا الفاقهين الذين يؤمنون بالعاقبة السيئة لهذا التفرق، ولزعمائنا الغيورين الذين يعملون في الجوانب السياسية والاقتصادية والحربية على التركيز وتوحيد الكلمة والمنهج. هل لهم جميعًا أن ينظروا إلى هذا الجانب الديني أيضًا، ويعملوا بإيمانهم وحكمتهم على إحيائه سليمًا نقيًّا، وعلى وحدة المسلمين فيه، والرجوع بهم إلى المحجة البيضاء، التي تركها الرسول ﷺ وظلت قائمة بمصادرها الخالدة من كتاب وسنة؟؟

هذا ما أرجو أن يعمل عليه الزعماء والعلماء، حتى يحققوا للإسلام والمسلمين الوحدة التي رسم الله، ويفوز بتوفيقه ورضاه

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

(الأنعام: ١٥٩)

التعاليم المحمدية واتصالها بالكون

فطر الإنسان على خاصتين: إحداهما الشعور بقوة غيبية مهيمنة عليه، وعلى الكون، ذات علم وحكمة، وتدبير وقدرة، هي مصدر الخلق والإيجاد، وهي مصدر التوفيق والهداية.

وكان من حق هذا الشعور النابع من الفطرة، أن يظل حاضرا في النفس، مستتبعا آثاره ولوازمه من الإيمان بوحدانية الله، وباستحقاقه وحده العبادة والتقديس، واستجابة أمره ونهيه دون سواه.

ولكن ما ركب في الإنسان من قوى الشهوة وحب الانطلاق مع بواعث الهوى العاجل، أنساه هذا الشعور، وحال بينه وبين التذكر في كثير من أوقاته وشئونه وصار لا يذكره إلا جوابا عن سؤال مفاجئ، أو التماسا لتفريج كربة وقع فيها وأحاطت به.

وقد سجل القرآن في كثير من آياته هذه الخاصة للإنسان، وأشار إلى غفلته عنها، وإلى تنكره لها واعترافه لها:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (الزمر: ٣٨)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت: ٦٣)

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ١٢)

أما الخاصة الثانية للإنسان: فهي إعداده بقوى العقل والإدراك للبحث والنظر، في نفسه وفيما يحيط به من ملكوت السماوات والأرض، فينمو شعوره الفطري، ويمتلئ قلبه بنور الإيمان، فيسلك السبيل الواضح الذي لا غموض فيه ولا التواء، سبيل الأمن والاطمئنان، سبيل الحياة الطيبة، والسعادة النفسية الراضية، ويصل في الوقت نفسه ببحثه ونظره إلى معرفة أسرار هذا الكون، وما أودع فيه من وسائل التقدم، ومواد العمارة لهذه الأرض، التي جعله الله خليفة فيها.

ولكن الأوهام التي كانت تملكه في أوقات غفلته ـ وما أكثرها ـ وضعت على عقله حجابا كثيفا منعه من التوجه إلى هذا الكون وخوض غماره، وبذلك ربط نفسه بالخرافات والأوهام، فسلب فائدة العقل والإدراك، وانقاد لما لا يسمع

ولا يبصر، وظل يدور حول نفسه، ولا يعرف في الحياة إلا ما يلبى غرائزه الحيوانية، وميوله النفسية الفاسدة.

لم ترض الحكمة الإلهية أن يقع الإنسان، وقد كرمه الله، وفضله على كثير من خلقه في هذا المصير الذي أضعف خاصتيه: خاصة الشعور بالإله الخالق، وخاصة البحث والنظر لمعرفة أسرار الكون، والانتفاع بها في الحياة، فتعهدته بالإرشاد، وأنواع الهداية على ألسنة الرسل الكرام.

وكانت خاتمة الإرشاد والهداية، هذه التعاليم التي أوحي الله بها إلى رسوله محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، أوحي بها إليه، وكلفه تبليغها للناس، ودعوتهم إلى التأمل فيها، والإيمان بها، عن طريق النظر والاستدلال في أنفسهم، وفيما يحيط بهم من أرض وسماء، وماء وهواء، فأحيا بها في القلوب الشعور الفطرى بوجود الخالق ووحدانيته، ثم وجههم بها إلى البحث عما أودع في الكون من مواد الحياة، التي بها تعمر الأرض، والتى يكون العالم بها مظهرا لرحمة الله بعباده.

وبهذين النوعين من التعاليم المحمدية التي جاءت للناس على فترة من الرسل، عرف الإنسان مركزه من خالقه، فكان له عابدا مقدسا، وحامدا شاكرا، وعرف مركزه أمام الكون، وكان أمامه باحثا منقبا، وبانيا معمرا، وقد تضمن القرآن هذين

النوعين من التعاليم ونجد النوع الأول بمناهجه المختلفة ماثلا في أكثر الآيات وقد جاء الثانى كذلك في القرآن بأساليب توحي كلها بالتوجه إلى النظر في الكون، والبحث عن أسراره ومنافعه، ويغرى بالتطلع إلى جهات النفع، والحصول عليها، فمن أسلوب يعلن أن الله ما خلق الكون على هذا النحو المملوء بالأسرار؛ إلا ليصل الإنسان إليها وينتفع بها

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

(البقرة: ٢٩)

فى ظاهرها وباطنها بأعيانها وبإدراكها وبدلالتها.

ومن أسلوب يؤكد للإنسان أن الله سخر له هذا الكون، وجعله في متناول عقله، وقبضة يده

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(النحل: ١٤)

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾
(ص : ٣٦)

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (سبأ : ١٠)

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ (سبأ : ١٢)

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ (الحديد : ٢٥)

ومن أسلوب ينبه إحساس الإنسان إلى التطلع إلى مخلوقات خاصة ذات شأن في الأسرار والمنافع، فيندفع إلى تلمس ما اشتملت عليه، ذلكم الأسلوب هو قسم الله سبحانه بهذه المخلوقات:

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾

(الشمس : ١-٨)

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ (العاديات : ١-٣)

ومع ذلك كله يوجه الأنظار إلى جملة من أصول الثروات، التي تكون بها حياة الأمم ونهضتها فيذكر الثروة الحيوانية والنباتية والجبلية، ويمتن على الإنسان بها، ويغريه إلى تحصيلها والانتفاع بها.

بهذا يتضح أن التعاليم المحمدية الماثلة في كتاب الله، لم تقتصر في مهمتها للإنسان على إحياء شعوره الفطرى بالخالق وعبادته، وإنما أوحت إليه في الجانب الإنساني أيضا بما يحقق قيمته في الحياة، ويقف به في مركزه أمام الكون.

وبذلك تطابق كتاب الوحي مع كتاب الكون، وصدق كل منهما الآخر، فامتزجت الروحية بالمادية، وكان الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

جددت التعاليم عهد الولاء بين الإنسان وخالقه، وردته إلى فطرته، ثم ربطت بينه وبين الكون، وهيأته بهذا الربط لحياة قوية شريفة، وبذلك كانت الدنيا من الدين، وكان الدين من الدنيا.

فجدير بأرباب البحث في الكائنات، الذين نظروا إليها كوحدة منفصلة عن جانب الشعور الفطرى بالخالق، جدير بهم أن ينظروا إلى أمية محمد ﷺ وبيئة الجاهلية التي نشأ فيها، وبين هذه التعاليم المتصلة بالكائنات التي يعرفونها.

جدير بهم أن ينظروا كيف تجري هذه التعاليم على لسان مثل محمد ﷺ، في أميته وبيئته، وفى زمنه كله جدير بهم

أن ينظـروا إلى هذا نظرة إنســانية مطلقة مــن قيود العصبية الغاشــمة، وفى اعتقادى أنهم إذا نظروا هذه النظرة لضاقت شقة الخلاف بين بنى الإسلام، وآمن الجميع بأنه

﴿ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾

(النجم: ٤-٥)

وتلاقــت بذلــك نتائــج البحث والنظـر بمبــادئ الوحي والتعاليــم وأصبح الناس جميعا بنعمة الله إخوانا، يخضعون لرب واحد، وإرشاد واحد، أمة واحدة، في حياة واحدة.

تلــك دعوتــى ـ وهي دعــوة الحق ــ أوجهها إلــى أرباب القلــوب الحيــة، والعقــول الناضجــة، الحريصــة على خير الإنسانية وسعادتها:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الأعرف: ١٥٨)

عظمة محمد ﷺ

جرت سنة المسلمين ـ بعد قرونهم الأولى ـ أن يحتفلوا ـ في شهر ربيع الأول من كل عام ـ بذكرى ميلاد الرسول محمد ﷺ ، وكان لهم في الاحتفال بهذه الذكرى أساليب تختلف باختلاف البيئات والبلدان.

فمنهم من يحتفل بتهيئة طعام خاص لا يألفونه في مجرى عادتهم الغالبة تتناوله الأسر في ليلة الثانى عشر من الشهر ، فرحة مسرورة حول مائدة واحدة وتلك ذكراهم لميلاد الرسول ﷺ .

ومنهم من يحتفل بأصناف من الحلوى ذات أشكال وصور مخصوصة ، يصنعها الباعة لتلك المناسبة ، ويضعونها منسقة منظمة أمام حوانيتهم التماسا للرواج والربح ، وتلك ذكراهم لميلاد الرسول.

ومنهم من يحتفل بالدعوة إلى اجتماعات تفتح بتلاوة آى من الذكر الحكيم ، وكثيرا ما يتحرى القارئ الآيات التي تعرض لذكرى الرسول باسمه أو صفته ، ولعلك تسمع في الليلة الواحدة أكثر من قارئ يقرأ قوله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب : ٤٠)

ثم تتلى قصة المولد الشريف بما أودع فيها من الأوصاف الخلقية، والأوضاع التي كان عليها وقت ولادته ﷺ، وتلك ذكراهم لميلاد الرسول ﷺ.

وتعنى بعد هؤلاء وهؤلاء أقلام الكتاب وألسنة المتحدثين بالمقالات والأحاديث، ينشرونها ويذيعونها على الناس، يذكرونهم فيها بعظمة محمد ﷺ في شمائله التي فطر عليها، وعرف بها في أهله وبين قومه.

يوم أن كان غلاما يرعى الغنم، ويعزف بنفسه عما يألفه أقرانه من مجالس اللهو واللعب.

ويوم أن كان شابا جلدا يحضر مع أعمامه حرب الفجار وحلف الفضول.

ويوم أن كان رجلا مكتملا وافر العقل، يرضاه قومه حكما في النزاع يشجر بينهم.

ويوم أن كان ملتهب الفطرة في صلته بالله، فيفر من ظلمة الدنيا وجهالتها إلى التحنث والأنس بنور الإيمان الفطرى.

ويوم أن كان مشفقا على قومه من جهلهم بالله، وانغماسهم في الشهوة والهوى، لا يدرى كيف يهديهم.

ويوم أن كان هاديا مرشدا، يتعهدهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبشر من أجاب، وينذر من أناب.

ويوم أن كان محتملا مكائد قومه، صبورا على إيذائهم، يستعذب العذاب في سبيل دعوته، ويوم أن خرج من نطاق الحديد والنار الذي ضربه قومه حول بيته، ليضربوه ضربة واحدة يتفرق بها دمه في القبائل فيستريحوا منه ومن دعوته.

ويوم أن صار في المدينة قائدا يتقدم الصفوف، ويتقى به أصحابه.

ويوم أن كان حاكما يقيم الوزن بالقسط، لا يعرف نفسه ولا أهله في إقامة حد الله وشرعه.

هكذا جرت سنة المسلمين بعد قرونهم الأولى !!

وما كان المسلمون الأولون يفكرون في تعيين زمن خاص يذكرون فيه الناس بعظمة محمد ﷺ، عن طريق الاحتفالات التي تقام، أو المقالات التي تكتب، أو الأحاديث التي تذاع.

ذلك أنهم كانوا يرون عظمته ﷺ ليست من جنس العظمات التي يخشى عليها النسيان أو التلاشي في صحف الأيام حتى تحتاج في بقائها إلى تذكير الناس بها، وتنبيه وعيهم إليها، وليست من جنس العظمات التي تألفها الأمم في نوابغها وأفذاذها، تكون في ناحية من نواحي الحياة، كانتصار في معركة، أو فتح لحصن، أو سبق إلى اختراع

مادي، أو كشـف نظرية علمية في السـماء أو في الأرض، أو زعامة أمة أو إقليم.

وإنما كانوا يرون ـ كما هي في الواقع ـ أنها عظمة خالدة بخلـود آثارهـا في العالـم، تنمـو وتمتد، وتسـرى بقوتها الذاتيـة فـي جوانبـه، شـرقا وغربـا، وتنطلق أشـعتها على مجاهيـل الكرة الأرضية، فتنبض لهـا القلوب، وتتحرك لها العقول، وتنشـرح بها الصدور، وتمتلئ بروعتها وبساطتها النفوس، وترسـم لهم سبل السـير وراءها فيكشفون للناس عن جوهرها ومصدرها وعن نظمها في الحياة.

كانوا يرونها خالدة بأثرها هكذا، وخالدة بكتابها الخالد الذي يهدى الإنسـان في الحيـاة للتى هي أقوم: في عقيدته، وفـى خلقـه، ونظـم حياتـه، وروابطـه العائليـة والمدنيـة والإنسانية، وفى علاقته بالكون، أرضه وسمائه، وفى متعته بلذائذ الحياة الطيبة، وفى تضامنه مع أخوته بنى الإنسـان، وفى عمارة الدنيا وفى أمنها واستقرارها، وفى بلوغها أقصى ما قدر لها من كمال.

كانوا يرونها هكذا خالدة، وهكذا عامة.

وكان ذكرها لديهم في ترسم خطاها، والجد في نشرها، وفتـح قلوب الناس لها، والعمل على انتفاع الإنسـانية بها،

وبذلك ركــزوا حياتهم في تقليب وجوههــا، والاقتباس من نصها وروحها، لما يكفل للإنسانية أن تحتفظ بمكانتها في صفحة الترتيب الكونى لهذا العالم.

وتلــك كانت ذكراهم لعظمة محمد ﷺ، كانت حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم أقلامًا من نور ترسم خطوطها في جميع الآفاق، تفتح القلوب وتنير العقول وتحيى الضمائر.

هــذه عظمة محمــد ﷺ، وتلك ذكراها عند المســلمين الأولين، ولكــن لمَّا ضعفت النفوس، وتفتحت للناس منابع الشــهوة والهوى، وناءت القلوب بحمــل الأمانة؛ هان على النــاس تقديرها، واســتبدلت بها غيرها مــن صور العظمات الخاصة، وصــارت تلك العظمات هي المحراب الذي نتجه إليه والغرض الذي نسعى جهدنا في الحصول عليه.

وأقفــرت قلوبنــا وحياتنا من جوهر العظمــة المحمدية، وصرنــا لا نذكرها، ولا يلمــع برقها إلا حيث يوافينا من كل عــام هــلال ربيع، أو يقال لنا هذا شــهر ربيع، شــهر المولد النبــوى الكريم فنهــرع إلى هــذه المظاهر نقيمهــا، وتلك الكلمات نؤلفها، حفاوة بحق الذكرى، وبحق الانتساب

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف: ١٠)

القريـة السعيــدة

يســتقبل المســلمون فــي كل عــام بشــهر ربيــع الأول ذكرى محببة إلى نفوســهم، ذكــرى يجرى حبها في قلوبهم وأعصابهــم جريــان الدم فــي العــروق، وجريان الــروح في الجســد، ويذكرون بها الحد الفاصل بين الظلام الذي خيم على الإِنســانية، وبين النور الذي كشــف لها الطريق، ورفع عنها الحجب وأنار أمامها الحياة.

يذكــرون بهــا الحــد الفاصــل بيــن الــذل والاضطــراب والفوضى، وبين العزة والسكينة والنظام.

يذكرون بها الحد الفاصل بين ما ســقطت فيه الإِنســانية من حمأة الجهل والاســتعباد وكبــح الحرية والخضوع لغير الله، وبيــن مــا ارتفعت إليه من ســماء العلم ومكانة الرشــد والاستقلال، مع حرية الرأى والخضوع لله الواحد القهار.

يذكرون كل ذلك بشــهر ربيــع الأول، كلما دارت حركة الفلك وجاء عام بعد عام.

يذكرون ذلك فتتجه مشاعرهم وتهفو قلوبهم إلى منابت هذه الذكرى، وإلى شخصية هذه الذكرى، وإلى عوامل هذه الذكرى، وإلى آثار هذه الذكرى.

ليس من شك في أن الأزمنة والأمكنة كإنسان، تسعد وتشقى، فسعادة الإنسان ترجع إلى ما يمكنه من خلع ثياب الذل والاستعباد، والقضاء على صور الفساد والدنس التي تحيط به وتسلبه الحياة الفاضلة، حياة الحرية والعزة والكرامة، وإلى ما يهيئ له القيام بواجباته التي بها يحصل على حقوقه كاملة غير منقوصة، وتجعله ذا حظ يسمو به في حياته ويذكر به بعد مماته ويكون من الخالدين.

وسعادة الزمن ترجع إلى ما تسديه حركته إلى الإنسانية من قوى الخير والإصلاح، والسير بها في طريق الهدى والفلاح.

وسعادة المكان ترجع إلى ما ينبته من غذاء طيب يكون له فضله في تقوية الحياة، وسريان الخصوبة منه إلى ما يتصل به من موات، فتزكو التربة، وينبت الغرس، وتعظم الثمرة، وبقدر ما يتاح للإنسان والزمان والمكان من جهات السعادة، يكون اصطفاء الله للإنسان والزمان والمكان

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: ٦٨)

وعلى هذا الأساس سجل الله في كتابه اصطفاء الأشخاص

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٣)

وسجل اصطفاء الأزمنة

﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر: ٣)

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٥)

وسجل اصطفاء الأمكنة

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ (طه: ١١-١٣)

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ (الإسراء: ١)

ومن الأمكنة المصطفاة مكة فهى في سجل الاصطفاء من عهد إبراهيم عليه السلام

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم: ٣٥)

وكانت أول مكان استضاء بنور ذلك الإصلاح المحمدي، واهتزت جوانبه ببشراه في مرحلته الختامية، فتسجيل الله لها، وتخليده لذكراها في كتابه العزيز الخالد، وفى واجباته

الدينية الأولى، كان التسجيل المكانى أبرز تسجيل وأعظم تخليد.

فقد ربط بها ـ لمكان البيت فيها ـ قلوب المؤمنين واتجاههم، كلما قاموا إلى الصلاة، وكلما ضرعوا بالدعاء،

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة: ١٤٤)

وربط بها أجسامهم وقلوبهم كلما تيسر لهم واستطاعوا حج البيت الحرام

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾ (آل عمران: ٩٧)

ثم نوه بشأنها وذكرها في كتابه دون سواها من الأماكن بجملة من أسمائها التي توحي بالنعمة التي نبتت من جبالها، وسرى روحها في أنحاء العالم فأحيته بعد موات، وهدته بعد ضلال، وأضاءته بعد ظلام، وكانت مصداقا لدعوة إبراهيم عليه السلام:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٩)

ذكرها بأشهر أسمائها «مكة»:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ (الفتح: ٢٤)

وذكرها باسم «بكة» وهو يرشد إلى مكانة البيت الذي رفع إبراهيم وولده إسماعيل قواعده، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع والسجود

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾

(آل عمران: ٩٦-٩٧)

وذكرها باسم «أم القرى» ومن الأم يرضع الأبناء لبن الحياة الصافي:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الشورى: ٧)

وذكرها باسم «البلد الأمين» رمزا لما تنفست عنه من مبادئ الأمن والاستقرار، وبهذا الوصف «البلد الأمين» أقسم بها سبحانه ضمن منابت الهداية الإلهية، توجيها للأنظار نحو خيرها، ونعمتها على العالم:

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾

(التين : ١-٣)

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾

(البلد : ١-٢)

لقد كان العالم يموج بأنواع من الفتن والشرور، وفى هذه الفتن ضل الإنسان سبيل الحكمة، وهضم بجبروته حقوق الضعفاء، وتحكم في العقائد والأخلاق والروابط الاجتماعية، وفى هذا الجو فسد عليه تصوره لخالقه، وانقطع عنه نور الحق، وفسد تصوره للفضائل، وفسد تصوره للجماعة البشرية، فعاش على أساس الشهوة العمياء، والفردية الممقوتة، والانحلال الشائن لا يعرف الرحمة ولا التعاون، ولا يكترث إلا بما رسمه تصوره الضيق المنحرف.

وكان من الضرورى أمام هذا الانقلاب الذي سار إليه الإنسان، وقد خلقه الله ليعرفه، وليكون مظهرا لصفات الجمال والجلال. وليكون خليفة في الأرض يعمرها وينميها ويسعد نفسه وإخوانه بأسرارها ونعم الله فيها.

كان من الضرورى في الحكمة الإلهية أن ينظر الله إلى العالم نظرة جود ورحمة تنتشله من وهدته، وتصلحه من فساده، وترده إلى صوابه، وتبصره الطريق السوى المستقيم، وتلك سنة الله كلما ضلت الأقوام وانحرفت الأمم.

ومن هذا البلد الأمين «مكة» أم القرى، ذات الجبال الشاهقة والحصون المحكمة التي صانتها عن زخارف المدنيات الطائشة، مدنيات الفرس والرومان، والتي غرست في نفوس أهلها: بسمائها، ووديانها، وجبالها، معاني الحرية والنجدة، والكرم وإباء الضيم.

من هذا البلد تفجرت ينابيع الحكمة والهداية، وارتوى من سلسبيلها الإنسان في كل زمان ومكان، فشعر بعزته، وشعر بمكانته في الحياة.

فى هذا البلد الأمين، وتلك القرية السعيدة، ولد حفيد إبراهيم، محمد بن عبد الله، وكان ميلاده إيذانا ببزوغ فجر ليل اشتد ظلامه، وتخبطت في دياجيره البشرية قرونا طوالا.

فى هذا البلد الأمين، ولد محمد، فتولاه ربه برعايته، وصنعه على عينه، وخلصه له منذ صباه، فلم يشغل قلبه بشيء من عطف الأبوة، ولا حنان الأمومة، ولا بشيء من زخارف هذه الدنيا الفانية.

ولما بلغ أشده واستوى آتاه الله العلم والحكمة، وجعله نبيا، وختم به رسالاته، وأكمل به دينه، وأتم به على العباد نعمته، أحيا به ما اندرس ـ بالطغيان والهوى ـ من هداية

إبراهيم، وآل إبراهيم، وجدد به عهد الولاء للخالق، وكون عظمة شغلت العالم منذ أربعة عشر قرنا، وستظل بأبنائها الأوفياء المخلصين في حمل شعلتها، الحامين لذمارها، تشغل العقول وتلفت الأنظار، وتسمو بالإنسانية، وتزلزل عروش العنف والجبروت، وتقوض قصور الظلم والطغيان، وقد كتب الله على نفسه، ووعد ـ ووعده الحق ـ أن ينصر عباده المؤمنين المخلصين:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾
(المجادلة: ٢١)

هذا أيها المسلمون شهر ربيع الأول الذي ولد فيه محمد، وتلك مكة القرية السعيدة التي شب فيها وترعرع، وتلك شريعته التي بها أنقذ الإنسانية، فاذكروا بالزمان والمكان هذا النبي العظيم، وتلك الشريعة المطهرة:

﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ ﴾ (الحديد: ١٦)

هذه أمانة الله، حملها آباؤكم وأجدادكم، وجئتم بعدهم خلفاء، فارفعوا رايتها، وجاهدوا في سبيلها، ولا يكن منكم معوقون ولا متخلفون.

نتائج ميلاد الرسول ﷺ

إن نتائج مولد الرسول وما اتصل به من الإِعداد الإِلهى لتحمل رسالة الله رب العالمين، يعرفها كل من يعرف حال العالم في الفترة التي سبقت الميلاد، ويعرف ما تضمنته الرسالة من جهات الهداية والإِرشاد، التي أخذت تحول العالم رويدا رويدا من مجارى الشر والشقاء، إلى سبيل الخير والسعادة، حتى استقرت كلمة الحق، وجعلت تعمل عملها في أنحاء الكرة الأرضية.

وليس من شك في أن حال العالم في الفترة السابقة، قد خرجت بالإِنسان عن وضعه في صحيفة الترتيب الكونى.

فهو بالنسبة إلى الله، أنكر ألوهيته، أو أشرك غيره معه في العبادة والتقديس، والخضوع والاستعانة، واشتط في ذلك حتى عبد ما لا يسمع ولا يبصر، وخضع للأوهام والخرافات، وهو بالنسبة إلى نفسه، قد أسلم قيادها للشهوة والهوى، وعميت عليه الفضائل، فعبث بالأعراض، وعبث بالعقول، وعبث بالأرواح.

وبالنسبة إلى أسرته وأد ابنته، لا لشيء سوى أنها أنثى، وقتل ولده، لا لشيء سوى أنه لم ينل حظًا من المال والغنى، وعضل

اليتيمة وأكل حقها، لا لشيء سوى أنها فقدت أباها الذي يرعاها، وضار الزوجة لا لشيء سوى أنه مُكِّنَ منها، وسلط عليها. وأخيرًا ورث زوجة أبيه أو أخيه كرهًا كمتاع تركاه.

وبالنسبة إلى المجتمع أفسد جزئيته له، وقطع صلته به، وحكم في روابطه القوة الغاشمة، والجبروت والطغيان وبذلك انتزعت الرحمة من قلبه، وصار لا يعنى إلا بوسائل القسوة والتسخير، والتحكم في العقائد والأخلاق والاجتماع.

****

وأمام هذا المصير الذي انقلب عليه الإنسان، وصارت به الحياة جحيمًا لا يطاق، وتطلع الروح العالمى الفطرى من وراء حجب الغيب إلى مصدر الخلق والإيجاد، مصدر الهداية والإنقاذ فاستمع إليه، وهو السميع العليم ونظر إليه وهو الرءوف الرحيم.

وفى هذه الآونة، سرت بشرى الإنقاذ بمولد الرسول محمد ﷺ، فاهتز لها باطن العالم، واشرَأَب الروح الفطرى إلى السماء، يقلب وجهه في آفاقها، وما هي إلا فترة النمو والإعداد، حتى وافت الإنسان رسالة السماء تدعوه إلى الخير وتأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وتخرجه من الظلمات إلى النور، وتبصره بمكانته من الله وبواجبه في الحياة، وترده

إلى دائرة الروح الفطرى، دائرة النقاء والصفاء:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩)

هدته إلى التي هي أقوم: في علاقته بخالقه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه. هدته إلى كل ذلك بأسلوب أساسه التوجيه إلى الخلوة بالفطرة النقية التي لم تدنس والتى ضرعت إلى ربها تلتمس الهداية والإنقاذ، ليجد منها العون والنصير على تقبل هذه الهداية، والانتفاع بها في استعادة الإنسانية والسير بها في طريق الغاية التي خلقت لأجلها، وعلى أساس من الإيمان بخالق القوى والقدر، مصدر التوفيق والهداية:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(آل عمران: ١٦٤)

وليس لنا من سبيل إلى الكتابة عن كل نتائج هذا الميلاد وآثاره القيمة التي عادت بالخير والبركة على العالم كله، حتى على من لم يؤمن بها، أثارت على روحه الباطني نفحات وجه بها نفسه وقومه في الحياة وإن كانوا لا يشعرون أو يشعرون ولا ينطقون.

ذلك أن من أبرز هذه النتائج وأولاها، مبدأ أن «المخلوق» لا يخضع لمخلوق مثله، يعبده ويقدسه، ويتخذه صمدًا له في الحياة. وبالتالى يكون لأمره ولرأيه عنده، قوة تملك عليه قلبه، ولا يستطيع مناقشته، ولا إبداء رأى يخالفه.

والقرآن قرر هذا المبدأ وربط في كثير من آياته الواضحة وحدانية الألوهية والخضوع، بوحدانية الربوبية والإنعام وأرشد إلى أن الألوهية والمعبودية، ليست لغير الرب الخالق، المنعم:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: ٢-٥)

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١)

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعام: ١٠٢)

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس: ٣٥)

بهذه الآيات ونحوها وهو كثير في القرآن الكريم، سطع على الإنسان نور، بصّره أنه لم يخلق ليقياد بالزمام، وبهذا النور

نفض عن نفسه قوة التسخير البشرى، وعرف عزته وسلطانه على نفسه وقلبه وحياته، وعرف أنه لا يخضع لغير خالقه الذي بيده أمره.

ولا ريب أن هذا المبدأ له المكانة الأولى في الأصول المقومة للإنسانية الفاضلة.

وإليك مبدأ آخر يليه،وقد عزت به الإنسانية، واتخذت منه سبيلها على أساس من معاني السمو الإنساني الذي لا يعرف الجنسية، ولا التعصب لذات النفس، وإنما يعرف الأخوة الإنسانية والرحم الآدمى العام

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ (النساء: ١)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾

(الحجرات: ١٣)

وجاء في خطبة الوداع التي توجه بها صاحب الميلاد دعوته «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربى على

عجمى إلا بالتقوى».

وفـى ظل هذا المبدأ، تناسـى كثيـر من الناس الجنسـيات، وعرفـوا تكاتـف القلـوب، واتحاد القـوى على إشـاعة الخير، والنهوض بالإنسانية العامة.

هذان مبـدآن، هما أولى نتائج الميـلاد المحمدي، قد انتفع الناس بهما حينًا من الدهر، وتلقنهما الغرب من الشرق، وسرت فيهم روح الحرية والاستقلال في البحث والرأى وإدارة الشئون، كما سرى فيهم روح التعاون فيما بينهم فتكتلوا وانتفعوا.

فهـل لقـادة اليوم وقد بـدت في بعـض آفاقنا آيـات الرجوع إلـى عهد التبعية البشـرية، وعهد التكتل الجنسـى، هل لهم أن يسـارعوا فيقفوا بجماعات المسـلمين عند الحد الذي رسـمه فاطر السموات والأرض؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (فاطر: ١٥-١٧)



ندوة العلم والتعليم في خدمة المجتمع

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى. أما بعد فمن القضايا المقررة أنه لا خير فيمن لا خلود له، ولا خلود لمن يقف نفسه أو يقف بفكره في مجتمعه عند متخلفات الماضي الذي طويت صفحته. وكذلك لا خلود لمن يقود مجتمعه على غير أساس من شخصيته التي ينبع احترامها من قلبه، وينحرف إلى العواصف التي ترسلها القوى المضادة، بزعم أن فيها خدمة المجتمع وبها حياته.

ولكن الخلود لمن يقف فكره وراحته لخير مجتمعه الذي يلبى حاجة إحساسه ووجدانه ووقته، ثم يخلص عوامل التوجيه من آثار المخلفات الزمنية البالية، ويصونها من العواصف الهوجاء التي تثار حول مجتمعه ابتغاء زلزلته، عن مصدر حياته: عقيدته وإيمانه.

وليس من شك في أن أول ما يشاد عليه بناء المجتمعات الفاضلة، التي تعرف حقها وواجبها في الحياة، هو «العلم والتعليم».

وقد كان العلم والتعليم بمعناهما الواسع، الذي يتناول ظاهر الحياة وباطنها، ووسيلتهما، وهي محو الأمية، أول لبنة توضع في بناء الشخصية للمجتمعات الإسلامية. ولا أدل على ذلك من أن يجيء أول نداء إلهى لرسول تلك الشخصية:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾

(العلق: ١-٥)

وعلى هذا الأساس، نشأ المجتمع الإسلامي، وغاص بفكره في ملكوت السموات والأرض، حتى اقتعد مركز الأستاذية العلمية والتوجيهية في العالم كله. ثم جاءت عهود، أصيب فيها بنكسة في حياته، وشغل القائمون بالأمر فيه، عن متابعة السير في طريق الصون والكمال، وناموا عن العمل في تنمية العلم وانتقاء الطرق المثلى في التعليم، وكذلك أهمل في تعليمه عنصر التربية والتهذيب، الذي يملك عليه قلبه وضميره، ويحتفظ له بكل الآثار الطيبة التي يرقبها الناس من العلم والتى تحقق فيه رباط الوحدة

في الشعور والإحساس والهدف.

جاءت تلك العهود، وامتد بها الوجود، حتى اتصلت بحياتنا الحاضرة، ورأيناها في معاهد العلم والتعليم، وفي ذلك الجو الذي انعقد فيه برؤوس الناس، غبار الفتن السياسية والحزبية، والتنافس على مراكز الحكم وجدت عوامل الهدم الأجنبية الفرصة سانحة، فأخذت تنفث سمومها الفتاكة في أجهزة المجتمع، من اقتصاد واجتماع وتربية وعقيدة وإيمان وأخلاق، أخذت بإرسالياتها وكتبها وجمعياتها، والأقلام المأجورة في هدم ذلك البناء الشامخ واقتلاع شخصيته من نفوس أبنائه وورثته، وبذلك قضى فيما بيننا على العلم بمعناه الصحيح، وقضى على الرحم العلمى والوطنى والإسلامي بين أبناء الأمة، ووقع المجتمع في اضطراب فكري، يتبعه اضطراب عملى، فتزعزعت جوانبه، وتزلزلت أركانه، وكاد يسلم نفسه وحياته.

ولكن الله الغيور على مجتمع التوحيد والإيمان، أسعفه بفتية من أبنائه تفهم نفسها، وتفهم مجتمعها، وتعرف معنى الخلود، وتتلمسه من وجوهه الصادقة فأخذوا بإيمانهم الذي هو من إيمان المجتمع يعملون جاهدين في إنقاذ المجتمع من شر ما نزل به، أخذوا يبحثون وينقبون،

ويستعرضون ويختارون وينفذون، وكان ذلك شأنهم وخطتهم في خدمة المجتمع وتقويمه من كل نواحيه، وكان من ذلك ندوة «العلم والتعليم في خدمة المجتمع» تدعو إليها وزارة الشئون، ويرأسها وزير التربية والتعليم.

ليس من شك في أن هذه العهود التي أشرنا إليها، وقفت عند حد من العلم والتعليم، لا ينهض بمسايرة مجتمعنا لما حوله من مجتمعات العالم، ومكنت في الوقت نفسه للقوى المضادة، أن تعمل على سلخ شخصيته التي كون عليها من جهة إيمانه وإحساسه، وبذلك وقف وقفة المبهوت الحائر، المتردد بين إيمانه وإحساسه، وبين ما غرسته فيه تلك العهود.

فإذا كنا نريد حقًا أن ننقذ مجتمعنا من هول ما أصيب به، من داخله وخارجه ـ وهو الذي أعتقده ولا شك فيه، وهو الذي تقوم الدلائل في كل يوم وفي كل وقت على صدقه، وعلى الإيمان به ـ فإنه يجب علينا أن نؤمن بأن لكل مجتمع خصائص وشئونًا نفسية وقلبية، عليها نشأ وبها آمن، وأن نؤمن بأن أساس تعليمه المثمر وخدمته المفيدة، هو ما طبع عليه من تلك الخصائص وتلك الشئون وأنها وحدها هي التي تملي عليه عوامل الثبات والنمو، في سبيل ما يرسم له

من مناهج الخير والتقدم.

ولا ريب أن قادة اليوم من صميم المجتمع، شخصيتهم شخصيته، وإيمانهم إيمانه وإحساسهم إحساسه، وإذن فليس أمامنا ما يعوقنا عن اتخاذ شخصيتنا الخاصة، شخصية الإحساس والإيمان، العنصر الأول في التعليم والتهذيب.

وإني أعتقد أن قادة اليوم، لا يقنعون ـ بمقتضى إيمانهم ـ أن يقفوا بهذا العنصر عند منهج التعليم في المرحلة الأولى، هذه المرحلة التي لا يتذوق الطالب فيها طعم شخصيته، ولا يعرفها إلا بكلمات، يضطرب معناها ومدلولاتها في ذهنه، ولا يستطيع أن يكون له منها شخصية معنوية، يسير بها في طريق الكمال والنضج.

إن قادة اليوم يعرفون حق المعرفة: أن القوى المضادة، تعمل من كل جانب في محيطنا المصرى على نبذ المبادئ الإيمانية التي تكونت بها شخصيته، ويعرفون حق المعرفة أن الجرائم الخلقية والاجتماعية التي في حياتنا على غير مثال سابق، ونقرؤها في الصحف والمجلات، أوضح مظهر لنجاح هذه القوى المضادة، في ثورتنا على شخصيتنا الفاضلة.

وإذا كنا نعرف ذلك حق المعرفة، وصرنا فعلا إلى حياة

الحرية الصادقة، والمكنة العملية التي ترفع عنا ضغط القوى المضادة في حياتنا الاجتماعية، فقد أصبح لزامًا علينا أن نسير في طريق الكمال التهذيبي، كما نسير في طريق الكمال الاقتصادى والصناعى والسياسى، وبهذا نستطيع من طريق قريب أن نسترد ما فقدناه من عزة وكرامة.

لا ينبغي لنا أن نصيخ إلى تلك الصيحات التي تنطلق من حين لآخر في جو مجتمعنا المصرى بأسماء خلابة، لها ما وراءها من زلزلة المجتمع في معتقداته وأخلاقه، ثم في انسلاخه عن نفسه، وذوبانه في غيره، هذه الصيحات التي تنطلق كلها باسم المذاهب الحديثة في الاقتصاد والاجتماع والتربية والإيمان، وهي في واقعها تدور كلها حول نقطة واحدة، هي العمل على طرح القيم الأخلاقية، والمبادئ الروحية الإيمانية التي تجعل من الإنسان رقيبًا على نفسه، والتى تلبى طبيعته في الخضوع للضمير الإيمانى الذي يخشاه ويعمل على إرضائه.

إذا صح أن يكون من مذهب الحرية والوجودية والمنفعية، أساس الحياة، فهى أساس لحياة أصحابها فقط. أما أنها تكون أساسًا عمليًا لحياة الأمم والجماعات ـ وخاصة الأمم والجماعات التي تؤمن بشخصيتها، والتى لا تشعر قلوبها

بشــيء من الخير لهذه المذاهب ـ فهــذا إن أمكن أن يضرب على الأمة بسـيف القهر والقوة، فلا يعدو شأنه شأن الإكراه الذي به يقع الإنسان في اضطراب وزلزلة، بين ضميره وبين القوة المجردة في وجهه، المسلطة على رأسه.

وهــذه حياة لا يمكن أن يقوم عليها مجتمع مثالي فاضل، وهي فــوق ذلك معرضة في كل وقت لثــورة النفوس عليها، وترقــب الفــرص التــي ترفــع عن كاهلهــا قــوى الضغط في ســلوك ســبيلها كما نعرفه حــق المعرفة في شــعوب كانت معنا في الشخصية بالأمس، ثم حملها قادتها على غير تلك الشخصية.

إن بناء الحيــاة على عنصر الإيمان والإحســاس الطبيعي الذي خلق الإنسان على تلبيته بصدق وإخلاص، هو ما رسمه الله للإنسان منذ أن دبرت له قوة الشر ما دبرت:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ
وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ
وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ
تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ

ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه: ١٢٣ - ١٢٧)

هذا هو الأساس الذي يملك باطن الحياة قبل ظاهرها وهو الذي ينبع من القلب والوجدان، من قبل أن تمر عليهما التيارات العقلية المنحرفة والمتضاربة.

إن وصايا الدين ـ كما تؤخذ من مصادرها الصحيحة، ومن قبل أن يعبث بها العقل الإنساني، فيصرفها إلى غاية بشرية معينة ـ لتقف بالإنسان في جميع نواحيه عند حد التوازن والاعتدال. وبذلك يصان المجتمع عن الركود في نموه وتكامله، وعن الطغيان في سلوكه وتصرفه.

وهذا هو ما يرمى إليه الإرشاد الإلهى حينما يقول:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود: ١١٢ - ١١٣)

فالاستقامة ليست سوى الوقوف في مستوى التوازن. والطغيان ليس سوى الانحراف عن هذا المستوى، والركون إلى الظالمين، ليس سوى متابعة أرباب الأهواء والأفكار النادرة، الذين يحاربون صرف الناس عن حد التوازن.

إنى أتخيل صوتًا يتردد في بعض الصدور، ويكاد يفصح

عن نفسه: ما هذا الذي يريدنا الشيخ عليه؟ أيريدنا على أن نطلق للرجل حريته في طلاق زوجه، فتتشرد أبناؤه وبناته وفى تزوجه بأربع، فتلتهم بيته وأسرته نار العداوة والبغضاء؟ أيريدنا على أن يحال بين الفتى وخطيبته دون أن يتعرف كل منها خواص صاحبه واتجاهاته؟ أيريدنا على أن تظل البنت في بيت أبيها محرومة من العلم والسعى والعمل، وهي إنسان يحب العلم والمعرفة، ويهفو إلى الأعمال ويحسنها؟

أيريدنا على أن تظل المرأة هضيمة الجناح، تساق إلى بيت الطاعة بالقوة والضغط. وتعطى النصيب الأقل بالنسبة لأخيها وزوجها في التركة والميراث؟ أيريدنا على أن نغلق المصارف المالية والشركات التعاونية، التي تقوم بضرورات المجتمع وخدماته بما يحقق للناس سعادتهم، ويمكّنهم من معيشتهم؟ أيريدنا على ضغط الحرية الشخصية، فلا يسمح للمرأة بحق الاجتماع، ولا بحق الاختلاط ولا بحق الخلوة.

أيريدنا على أن نحكم بقطع يد السارق، لدراهم معدودة قد تكون الحاجة هي التي دفعته إلى أخذها؟ وأخيرًا أيريدنا على أن نترك مجالسنا الساهرة التي نرفه بها عن أنفسنا، ثم نخلع أحذيتنا وملابسنا، لنتوضأ ونصلى قبل فوات الوقت؟

أيريدنا على أن نغض أبصارنا عن التمتع بالجمال السافر الذي تتوارد عليه صوره في الطرقات والمجتمعات؟ وهكذا أتخيل هذا الصوت يتردد في صدر صاحبه بهذا وأمثاله، مما نسمع ونقرأ.

وإنى لأجمل الرد على هذا الصوت بكلمتين اثنتين:

أولهما: أن هذا الصوت يحمل في طياته القريبة، روح التنكر لما عرف أنه من صميم المبادئ الإلهية، والقيم الأخلاقية، وهو دون شك، من هذا الجانب، أثر من آثار نزعات التحلل، التي تعمل عليها ولها الأفكار الوافدة الهدامة التي أشرنا إليها والتى ليس لها في مجتمعنا سوى ضياع الشخصية الإسلامية، التي كان بها لمصر فضل تبنيها والمحافظة عليها، والتى كان بها لمصر فضل صدارتها للعالم الإسلامي وكان بها لمصر أن اتجهت إليها الشعوب الإسلامية، فبعثت بأبنائها لتثقيفهم في أزهرها، وكان بها لمصر أن سدت حاجة الدول الإسلامية كلها إلى أساتذة أزهريين، يقومون في معاهدها بتدريس الشريعة واللغة.

أما الكلمة الثانية: فهى أن هذا الصوت قد يكون له عذر إلى حد ما، فإن بعض ما يذكر قد صور بغير واقعه الصحيح في الإسلام، وفيه ما لم يشرح بوجهة النظر الإسلامية،

وأقولها صريحة:

إن منشأ ذلك ليس إلا ترك المصادر الأولى في استنباط الأحكام ودراستها، والتعلق بالشروح والتفاسير الإنسانية التي اتصلت بالمصادر في عهود الضغط على الفكر الإسلامي، واتخذت هذه الشروح دينًا ونصًا، يجب اتباعه، ويحرم بجانبها أن ننظر وأن نجتهد في تلك المصادر، التي جاءت على أساس التقبل لكل خير وصلاح، وطرح كل شر وفساد.

وقد أشيع هذا الفكر بين المسلمين تسويغًا لهذه الوقفة، أن السابقين حللوا المصادر، وطبقوا قواعدها على كل ما يمكن أن يجيء به الزمن، ويحدث من قضايا الناس وحاجاتهم إلى يوم الدين وبذلك انطوت صحف تلك المصادر، وأصبح المسلمون لا يعرفون منها إلا ما يحكيه أرباب المذاهب والآراء، من الجانب الذي يؤيد مذاهبهم وآراءهم، وأصبحوا كذلك لا يعرفون من دينهم إلا ما دوّن في الكتب وشاع في الأجيال الماضية على أنه دين وشرع.

وبهذا تهيأ لقوى المعارضة أن تزحف، ولأرباب المذاهب المستحدثة أن يهاجموا، ولأرباب النزعات التحليلية أن

يجهروا بمبادئهم إن صح تسميتها مبادئ.

هذا الأزهر الذي قام فيما مضى برسالة الثقافة الإسلامية، في العقيدة والتشريع والتهذيب، وتركيز الفكر الإسلامي وتنميته، على أساس من الحرية في الاجتهاد والنظر لمعرفة الصالح، قد أصابته هو الآخر، ما أصاب غيره، من وجود الضغط وعوامل الركود.

وإذا كنا ــ والحمد لله ــ صرنا إلى عهد الإنقاذ الجاد، فإني أرى علاجًا لهذا الشأن، أن أهم ما يجب أن يتجه إليه، ويبادر بوضع أسس التوجيه فيه خدمة للمجتمع، هو الأزهر، الذي احتل مكانته منذ القدم من قلوب المسلمين جميعًا، فهو وحده الذي يستطيع ـ إذا هيئت له السبل، ومهد له طريق البحث والتوجيه ـ أن يعمل على غرس الروح الديني السليم في النفوس، وهو وحده ـ باعتبار مكانته الدينية ـ الذي يستطيع توجيه المجتمع، ويضم شتات المسلمين في جميع بقاع الأرض، على أساس من الوحدة المثالية، التي يصفها الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

إن آيات القرآن الكريم، وإرشادات النبي ﷺ ـ وهما أصل النظام الإلهى الإسلامي ـ يدفعان المسلمين إلى مسايرة العالم غربيه وشرقيه في علومه الكونية، وفى جميع وسائل الخير والتقدم، بل يلحان ويشتدان في الإلحاح عليهم، أن يتفوقوا على من سواهم، في كل ما يتصل بالعزة والكرامة والمجد، حتى إنهما لم يجعلا العزة لمن سواهم، ويلحان في أن يكونوا ـ كذلك ـ المثل العليا للبشرية في الأخلاق، والروابط الاجتماعية، التي يقرران مبادئها في كل ناحية، وفى كل مجتمع.

ولا يظن ظان أن أبناء الأزهر غفلوا في تلك الحقبة الطويلة عن ركود الأزهر واطمأنوا إليه، فقد قامت فيه من نصف قرن مضى إلى الآن، ثورات تعمل على دفعه، وعلى تخليصه من الركود والجمود، تعمل على بسط رسالته، وقيامه بها حق القيام.

***

كانت ثورة الشيخ محمد عبده، وكانت ثورة الشيخ المراغى في عهده الأول للمشيخة، ولاتزال بيدنا مذكرته الإصلاحية التي يقول فيها بعد كلام طويل، يذكر فيه مهاجمة المذاهب الحديثة للثقافة الإسلامية، ويصف به

علمـاء القرون الأخيرة، ويصف به الكتب الملتزمة، وطرق التدريـس المتبعة، ثم يقول: وإنى أقرر مع الأسـف: أن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشـرين سـنة، لم تعد بفائدة تذكر في إصـلاح التعليم، وأقرر أن نتائج الأزهر والمعاهـد تؤلـم كل غيور علـى أمته وعلى دينـه، وقد صار من المحتم لحمايـة الدين أن يغير التعليم في المعاهد، وأن تكون الخطوة إلى ذلك جريئة، ويقصد بها وجه الله.

وعاد الشـيخ المراغى إلى مشـيخة الأزهر للمـرة الثانية ومكث نحو عشـر سـنوات والحال هو الحال، فتقدم عضو من جماعة كبار العلماء، يحس من الأزهر إحسـاس الشـيخ عليه الرحمة والرضوان، بمقترحات في الإنتاج العلمى، بما يحقق للأزهر رسالته، ثم قدمها بعد ذلك مرات متعددة لمن تولى ـ بعد فضيلة الشـيخ مشـيخة الأزهر كما ألقى صاحب المقترحات على الأزهريين أسـاتذة وطلابًا محاضرة بعنوان «السياسة التوجيهية العلمية في الأزهر»، ثم تحدث فيها عن التركـة المثقلة، التي خلفتها العصـور المظلمة، واحتملها الأزهر حتى أثقلت كاهله، وها هي ذي لاتزال مطبوعة.

حصل كل هـذا، ولكن الأزهر ـ كما قلنا ـ ليس إلا ناحية مـن نواحـى الحياة المصريـة العامة، التـي أصيبت في تلك

الفترة كلها بالركود، نتيجة لفساد الحكم، والفتن الحزبية من الداخل، وللضغط الأجنبى من الخارج ومن هنا ظل الأزهر كسائر المرافق الحيوية، قابعًا في مكانه من حى الدراسة يجاور المقابر، يحضر طلابه متى شاءوا، وينصرفون متى شاءوا ويدرسون من المقررات ما شاءوا، ويتركون منها ما شاءوا.

وقد عرف فضيلة الشيخ المراغى في حياته هذه الحالة، وكتب بها منشورًا جاء فيه: وهناك أمثلة ظاهرة العوار في قراءة المقررات تعلمونها كما أعلم، وتشعرون بأنها أمثلة سيئة، لايجوز أن تبقى ماثلة.

وعلى الرغم من هذا، ظل الأزهر قائمًا على ركوده في البحث والنظر، وعلى خطة الحرية المنحرفة، التي فرضها الطلاب لأنفسهم في الحضور والانصراف، ومقدار ما يدرسون، في عهدنا الحاضر، عهد الإنقاذ، وعامنا الحاضر، عام السكون والدرس في جامعاتنا المصرية، فإنه بينما تفرغ الجامعات من دراسة الفترة الأولى وتؤدى امتحانها في نصف موادها، ثم تشرع في دراسة الفترة الثانية وتستعد للامتحان بالدرس والتحصيل في آخر العام الدراسى ـ نرى

الأزهر الآن من نصف شهر مضى تقريبًا تخلو حلقاته وحجر دراسته من الطلاب ولم يمض عليهم أكثر من ثلاثة أشهر وينصرفون إلى بلادهم باسم الاستعداد للامتحان السنوى، وباسم الاستعداد لصوم رمضان ! !

ولا أخفى على حضراتكم، أنه حينما أشرقت على بلادنا شمس الثورة المباركة، انقدح في ذهني أن هذا العهد، هو عهد الخطوة الجريئة التي جاءت في المذكرة المراغية لإصلاح الأزهر. ولا أخفى عليكم مرة أخرى: أنه قد حز في نفسي أن أرى أن يد الإصلاح والإنقاذ في هذا العهد تمتد إلى جميع نواحى الحياة ـ وخاصة النواحى العلمية الجامعية والمدرسية ـ دون أن أراها تمتد ولو قليلا إلى الأزهر بأكثر من بضعة قرارات، لا أعرف مدى اتصالها بالإصلاح الذي عقدنا الآمال عليه من أول عهود الثورة.

****

إن الثورة الإصلاحية الموفقة ـ بإذن الله ـ والتى هيأ الله ظروفها وعواملها لإنقاذ هذا البلد، لا ترضى أن تحتمل في التاريخ، ولا في الشعوب الإسلامية، الإعراض عن الأزهر إلى هذا الحد، ومعاذ الله أن أكون من المتشائمين.

وإنــي لأعتقد أن رجال الثورة يــرون أن في العناية بالأزهر الوقايــة من الأفكار الهدامــة، والوقاية من الأخلاق المقوضة للجماعات.

ومن هنا أرى أن الثورة لابد أن تعالج الأزهر بما يحقق لها أهدافها النبيلة ـ لا في مصر وحدها ـ بل في العالم الإسلامي كلــه، التي كانت منه مصر بفضــل الأزهر في مكان الصدارة والقيادة والتوجيه.

إن مهمــة الأزهر لم تكن تخرج مدرســين ومعلمين فقط. وإنمــا تنتظــم في أول مــا تنتظم أمرين هما أهــم ما يجب أن يناط بالأزهر، بل هما أســاس رسالته، والعنصر الأول الذي يحقق وجوده ومعناه:

أولهمــا: تخريــج علماء مبرزيــن أرباب بحــث واجتهاد ســليم، وابتكار مفيد، ونقد ســليم في جميع نواحى الفكر الإســلامي، ومن هــؤلاء نرى الأئمة، والمصادر التشــريعية والأخلاقية الكبــرى، الذين يرجع إليهم في معرفة ما هو من الإسلام، وما ليس من الإسلام.

وقــد وضــع قديمًا في قانــون الأزهر ـ لهــذه المهمة ـ ما عرف باســم (تخصص المادة) لكن أتى عليــه هو الآخر في

تلك الفترة الماضية ما يأتى على كل حي، فطويت صفحته، ونساه الأزهر والناس.

***

وثانـى المهمتيـن: تخريج دعـاة ومرشـدين، أقوياء في العلم والإدراك والتدين، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الدعوة إلى الله: تقرير الحق، والتضحية في سبيله رائدهم. وتهذيب النفوس وتقويمها هدفهم، وإصلاح البشـرية وتوجيهها إلى ما يساعدها أقصى ما يبتغون.

ومـن هنا يتضح لنا أن الأزهرى ليس فقط أسـتاذ فصل أو فرقة، وإنما هو قبل ذلك أسـتاذ علم وبحث، وأسـتاذ دعوة وإرشـاد. وكان طلابه المسلمين في جميع بقاع الأرض بكل طبقاتهم، وبكل لغاتهم وأجناسهم وأقطارهم.

هذا هو الأساس الذي يجب أن يشاد عليه صرح الأزهر.

***

قد شـع من الشـرق علـى العالـم كله نـور أحيـا القلب الإنساني وأرشد الحائر،وهدى الضال، وقد تجمعت منابعه فـي مصر وأصبحت مصـر بفضل الأزهر الـذي تلقى تراث الفكر الإسـلامي مسئولة عن إعادة هذا النور إلى الشرق كله

بل إلى العالم أجمع، وقد تضاعفت مسـئوليتها حين هيأ الله لها عوامل الإنقاذ بثورتها.

وإن العالم الآن ليسـوده طغيان المادة في جميع جوانبه، ويسـوده التعصب الجنسـى، أو الطائفى فـي كثير من هذه الجوانـب، وكلا الأمريـن ـ طغيـان المـادة والتعصب ـ من أقوى أسـباب التناكر والتخاذل، والتناكر والتخاذل سـببان قويان لمـا يتقلب العالم اليوم في جمره من ويلات شـديدة متلاحقة.

*****

ولا منفـذ لنا من هذا الشـر المسـتطير إلا بـأن يتضامن الشـرق مبعث الهدى والنور، علـى تركيز الروح الديني في النفوس، وإنماء الناحيـة المعنوية في العالم، ويومئذ تكون ثورتنـا قـد وصلـت إلـى هدفها مـن تكوين مجتمع شـرقى إسلامي فاضل، له قلبه النابض وروحه الحى.

هـذا هو ما أردت أن يكون نصيبى في هذا الكتاب، أضعه بين يدى رجـال التوجيه والقيادة، وأرجو أن أكون قد أبرأت به ذمتى، وأديت أمانتى، والله والمستعان وإليه المصير.

المحتويات

الموضوع | الصفحة